

قيام الدولة الأموية الأندلسية

١٣٨ هـ / ٧٥٦ م

وصلنا بتاريخ الأندلس إلى ولاية الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ، وهى ولايةٌ طويلةٌ ميزتها الوحيدة أن الهدوء النسبى ساد البلاد فى أثنائها ، فلم نعد نسمع عن الخلافات العنيفة بين طوائف المسلمين من عربٍ وغير عربٍ ، ولكن وضع الأندلس كان يحتاج إلى أكثر من هذا الهدوء ، فقد كان يحتاج إلى حكمٍ قوىً نشيط ، فإن البلد خضع للمسلمين ، لكنه لم يتحول إلى بلدٍ إسلامىً بعد ، فقد كانت غالبية السكان نصرانية ، ولو استمرت سياسة الأمور على هذا النحو القلق المضطرب فإن أمر المسلمين فى الأندلس كان لا بد أن يتلاشى فهو بعيدٌ بعداً شاسعاً عن قلب مملكة الإسلام ومركز الخلافة ، فكان من العسير إمداده بالعون المستمر ولو عادت الفتنة مرةً أخرى ، ولو لفترةٍ قصيرةٍ لأصبح تلافى النتيجة المحتمومة مستحيلاً .

وقد أمكن تلافى هذا المصير بحادثٍ هو من قبيل المصادفات ، ولكنه كان من أسعد المصادفات فى تاريخ الإسلام ، ذلك أن قيام الدولة العباسية فى ربيع الأول ١٣٢ هـ / يونيو ٧٤٩ م اقترن بمذابحٍ واسعةٍ النطاق ، أنزلها العباسيون بالأمويين انتقاماً لما فعلوا بآل البيت - فى الظاهر - وتخلصاً من بقايا الأمويين وأنصارهم فى المناطق ، وقد حصد العباسيون الأمويين دون رحمةٍ ومن هؤلاء أبناء معاوية بن هشام بن عبد الملك وكانوا أربعة ذكورٍ عدا البنات . وقد قُتل الابن الأول ، فيمن قُتل من الأمويين فى دمشق عندما دخل العباسيون ، أما الثانى فقد قتل فى مذبحته « دير الجماجم » . وفر الثالث والرابع فقد كانا فى بعض قرى العراق عندما أقبل جند العباسيين للقضاء عليهما ففرا معاً ، وكان أولهما عبد الرحمن بن معاوية بن هشام وكان فى التاسعة عشرة ، وأخ له صغيرٌ فى الثالثة عشرة ، واختفيا فى مكانٍ من ضفة الفرات ، ثم طلبا إلى نوتى أن يعينهما على العبور ، فخافهما هذا الرجل ودل العسكر عليهما ، ففرا على وجهيهما والقبيا بنفسيهما فى الماء ليعبرا سباحةً ، ووقف الجند على الشاطئ يدعونهما إلى العودة ،

وبعد أن أعطياهما الأمان ارتد الأخ الأصغر ليعود وحذره أخوه فلم يسمع ، فلم يك
يصل إلى الشاطئ حتى قتل ، أما عبد الرحمن فقد فرّ إلى قرية في الشام ، وكان قد
اتفق مع أخته « أم الوليد وأم الأصبع » على أن ترسلها له مولييهما « بدرأ وسالمأ »
فيعود إلى هذه القرية ومضى الثلاثة هاربين حتى عبرا معه ووصلوا إلى المغرب
وكادوا يقعون في يد عبد الرحمن بن حبيب لكنهم نجوا إلى ساحل المحيط عند
طنجة واختفوا في قبيلة « نفزة » وكانت أم عبد الرحمن من بنات هذه القبيلة .

وعلى بعد ٦,٠٠٠ كيلو متر من بغداد ، شعر عبد الرحمن بشيء من الأمان .
كانت سنة ١٠٠٠ هـ ، وكان حرياً أن يقضى بقية عمره في خمول ، ومن
موضعه هذا أخذ يتطلع إلى ما حوله رجاء أن يجد وسيلة يخرج بها من ذلك
الخمول .

وفي سنة ١٣٦ هـ / ٧٥٣م تقريباً نجد عبد الرحمن يعيش في قبيلة « نفزة » في
حماية شيخها ، وهناك بدأت أخبار الأندلس تصل إليه ، وكان أمرها قد صار إلى
الصميل ويوسف الفهرى وكان سالم مولى أخته قد حدثه عنه ، لأنه كان في جملة
عساكر موسى بن نصير . ولكن سالم لم يحتمل خلق عبد الرحمن العنيف فعاد
إلى المشرق وبعث معه بدرأ الذي سيكون له نصيب كبير في إقامة صرح الدولة
الأموية في الأندلس .

وكان في الأندلس جماعة كبيرة من موالى بنى أمية ، ما بين موالى خلفاء كالوليد
وسليمان وهشام أبناء عبد الملك ، وموالى البيت الأموي عامة وموالى موسى بن
نصير ومغيث الرومي ومن إليهم من موالى بنى أمية ، وانضم إليها موالى
القرشيين ، وقد عرفوا بموالى قريش ، فكثرت عددهم وكانوا من خيرة مسلمي
الأندلس ، لما لهم من معرفة بشئون الدولة والإدارة ، وكان يوسف الفهرى قد
ادعى ولاء أولئك الموالى جميعاً عند ذهاب أمر بنى أمية ، ووجدوا هم في ذلك قوة
لهم ، فاندرجوا في أنصار يوسف وقد أدرك عبد الرحمن أنه يستطيع الوصول إلى
شيء بفضل هؤلاء الموالى في الأندلس .

لهذا أرسل مولاة بدرأ برسالة إلى زعمائهم وأهمهم ثلاثة : أبو عثمان عبيد الله
ابن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت - يرجوهم فيها معاونته على الوفود
إلى الأندلس للاستقرار فيها مع تهيئة ظروف حياة مناسبة لمثله .

ومن أول الأمر فهم الموالي أن هذا الشاب يطمح إلى ولاية الأندلس ، وكان ذلك يوافق أهواءهم فاهتموا للأمر ، وكلموا فيه الصميل بن حاتم ، لأنهم كانوا يعرفون أن القوة في يده . ومن الغريب أنهم لم يصارحوا به يوسف الفهرى ، والمفروض أنهم كانوا من مواليه ، وقد وعدهم الصميل خيراً .

وكان يوسف الفهرى مشغولاً إذ ذاك بأمر ثورة في سرقسطة ، قام بها اليمينيون وكان يلح على الصميل وموالي بنى أمية في الخروج ، وهؤلاء يُسوّفون ، ثم خرج الجيش آخر الأمر وفي أثناء الطريق تبين موالي بنى أمية أن الصميل يحتال عليهم وأنه لا يضمّر لعبد الرحمن هذا خيراً . فانصرف زعمائهم عن الجيش واتجهوا إلى مراكز الموالي في « البيرة وجيان » ، وفي الطريق قرروا أن ينفضوا أيديهم عن الصميل والقبائل المضرية وأن يعتمدوا على القبائل اليمينية الكلبية ، وكانوا موفقين في هذه الخطوة لأن اليمينية كانوا يتوقنون إلى الأخذ بثأر هزيمتهم في « شقندة » ، وكانوا تواقين إلى التخلص من سيادة الصميل بن حاتم عليهم عن طريق يوسف الفهرى .

لهذا استجاب اليمينيون في إقليم غرناطة إلى هذا النداء وتحمسوا لعبد الرحمن، على أمل أن يدركوا الرياسة معه ، وقرروا مع موالي بنى أمية استقدامه إلى الجزيرة ، وهكذا عبر عبد الرحمن في ربيع سنة ١٢٧هـ / ٧٥٤م إلى الأندلس ونزل في « فرضة المنكب » في كورة غرناطة ، ومنها انتقل إلى « طرش » ، وكانت دار يوسف بن بخت شيخ جند قنشرين وأحد كبار موالي بنى أمية ، وهناك توافد عليه الموالي وأتباعهم وذاع الأمر في الأندلس كله .

وبلغ الأمر الصميل ويوسف الفهرى في سرقسطة ، وكانت ظروفهما سيئة بسبب سوء تصرفهما مع الجند ، فلم يكن في أحدٍ حماساً حقيقياً للنهوض معهما ، وأقبل الشتاء وهما في هذا الثغر القصي ومضى الناس يهونون عليهما أمر عبد الرحمن قائلين : إنه لا يريد إلا الاستقرار والعيش في سلام .

وفي هذه الأثناء كان معسكر عبد الرحمن في « طرش » يحفل بالناس ، وكان أكثر الوافدين عليه المنضمين إليه من اليمينيين ، وانضمت إليهم جماعات من البربر، وكان هؤلاء يرجون أن يجدوا الراحة من القلاقل في ظل حكم جديد .

وعندما أقبل الربيع بدأت بطون مضرٍ والقيسية تتوافد على الصميل ويوسف، وكانا قد انتقلا إلى قرطبة، وظهر أن المضرين الشاميين لا يريدون أن يتنازلوا عن الرياسة التي وصلوا إليها مع الصميل بن حاتم، وإزاء ذلك شرع عبد الرحمن يمر بقواته على منازل اليمانيين لاستنهاضهم، فانضم إليه الكثيرون وتقدم من قرطبة وضرب معسكره على الضفة الجنوبية للنهر، في حين تزايد حجم جيش الصميل ويوسف وتأهب الجانبان للقاء حاسم. ووقع ذلك اللقاء يوم الجمعة ١٠ ذى الحجة ١٣٨هـ / ٧٥٦م عند « المصارة » وهي طرف قرطبة الغربي، وانتهى اليوم بنصر حاسم لعبد الرحمن ودخل قرطبة ونزل دار الإمارة مساء ذلك اليوم، ثم صلى بالناس وخطب على جند قرطبة، ويعتبر ذلك اليوم ميلاد الدولة الأموية في الأندلس، بل ميلاد عصرٍ جديدٍ في تاريخ الغرب الإسلامي كله.

واستأمن الصميل ويوسف إلى عبد الرحمن فأمنهما ثم نكثا عليه، وانتهى الأمر بحبس الصميل وموته مخنوقاً في سجنه، أما يوسف الفهري فقد تشرّد في نواحي الأندلس حتى قُتل في قريةٍ قريبةٍ من طليطلة.

فتوح المسلمين

شمالى جبال البرت

فى غالة (فرنسا)

فى مفهوم العرب إلى آخر الدولة الأموية على الأقل كانت حركة الفتوح حركة متصلة لا يمكن أن تتوقف مادامت هناك بلاد لم تصل إليها رسالة الإسلام ، فإذا ما تم فتح قطر فلا بد من الاسترسال فيما يليه مباشرة . هكذا رأينا اتصال الفتوح الإسلامية إلى الآن .

فيما يتصل بالاندلس كان هناك دافع أكبر لكى يستمر العرب فى الفتح فيما يقع شمال البرانس ، وهو أن تلك الجبال لم تكن حد المملكة القوطية من الشمال ، إنما كان القوط يملكون إقليم سبتمانية وهو يتكون من سبعة أقسام إدارية تمتد على ساحل البحر المتوسط من جبال البرانس إلى مصب الرون ، وكانت عاصمة هذا الإقليم مدينة « أرغون » ، أما ما يلى جبال البرانس فى الشمال فكانت تحتله فى الغرب دوقية « أقطانية » وعاصمتها « بردال أو برديو » ، وكان يحكمها إذ ذاك دوق يسمى « أود أو أودو » ، وكانت تحتل حوض الجارون وإلى شمالها كانت تقع مملكة الفرنجة ، وفى ناحية الشرق ، شمال سبتمانية كانت تقوم دوقية « برغنيدية » وتشمل بقية حوض الرون ، وكانت مستقلة عن مملكة الفرنجة .

أى أن العرب فى محاولتهم للاندفاع شمالاً كان عليهم أن يواجهوا أربع جبهات للمقاومة : بقايا قوات القوط فى سبتمانية التى تسمى أحياناً « لاجاليا جوتىكا » ، وقوات دوقية أقطانية ، وقوات إمارة برغنيدية ثم قوات مملكة الفرنجة .

وكان عبد العزيز بن موسى قبل نهاية ولايته قد استولى على إقليم « قطلونية » ودخل المسلمون برشلونة وطركونة وجرنده المعروفة باسم « خيرونا » . وبذلك كان شبه الجزيرة كله فى قبضة المسلمين عند نهاية إمارة عبد العزيز بن موسى سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م .

ولما تولى أمر الأندلس الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي في ذى الحجة سنة ٩٧هـ / أغسطس ٧١٦م تقدم فدخل أرغون عاصمة سبتمانية ، وقام بعدد من الغارات القصيرة فتحت أبواب فرنسا الجنوبية للمسلمين .

ولكن حركة الفتح في غالة بدأت بصورة جديّة على يد السمح بن مالك الخولاني ، الذي ولّاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠هـ / ٧١٩م ، وكان رجلاً عظيم الإيمان والحماس ، فقد جنده من « أرغون » إلى « طرسونة » واستولى عليها ، وتقدم فحاصر طولونة (تولوز) أولى المدائن الكبيرة في دوقية « أقطانية » ، فأسرع الدوق « أودو » وجمع جيشاً كبيراً وتقدم نحو المسلمين ، ودارت معركةً عنيفةً بين الجانبين ، وقد صبر المسلمون صبراً كريماً حتى استشهدوا عن آخرهم ، وكان ذلك في يوم عرفة ١٠٢هـ / ٢١ يولية ٧٢٠م ، ولم تستطع فلول القوات الإسلامية العودة إلى أرغون إلا بفضل قائدٍ ممتاز من طراز السمح هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، وهذه أول مرة نسمع فيها باسم هذا الرجل العظيم . تمكن من جمع فلول الجيش والعودة بنظام إلى أرغون ، وهناك انتخبه الجند العربي عاملاً على الأندلس وتلك كانت ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى التي لم تدم إلا قليلاً .

وكان الوالي الذي خلف عبد الرحمن رجلاً من طراز كبار الفاتحين وهو عنبسة ابن سحيم الكلبى ، فقد تولى من ١٠٥هـ / ٧٢٣م حتى شعبان ١٠٧هـ / يناير ٧٢٥م .

قضى عنبسة السنوات الأولى من الولاية في تنظيم أمور الأندلس وتكوين جيشٍ قادر على مواصلة الفتوح في غالة ، فلما تم له ذلك نهض سنة ١٠٦هـ / ٧٢٥م / ، فرقب أمر حاميّتي « برشلونة وأرغون » ثم سار شمالاً فاحتل « قرقشونة » ، وعقد حلفاً مع أهل الناحية على أن يردوا أسرى المسلمين ويقاتلوا معهم ، ثم تقدم إلى « نيمة » فاحتلها وعقد مع أهلها اتفاقاً مماثلاً ، ثم اتجه نحو نهر الرون فسار مع ضفته شمالاً دون أن ينفق وقتاً في الاستيلاء على مدن . فلما أدرك « أوتان » احتلها ، إذ كانت أول عواصم إقليم « بورجونيا » ، ثم أدرك حوض نهر السارون - أحد نهيرات اللوار الذي يلتقى بنهر الرون عند مدينة ليون ، واحتلت القوات الإسلامية « ليون وماكون وشالون » ، وهناك تفرعت الحملة فرقتين إحداهما احتلت « ديجون » والأخرى صعّدت مع السارون شمالاً

حتى بلغت « صانص » على بُعد ٧٠ كيلو متراً جنوبى « باريس » ، وهذه كانت أبعد نقطة وصل إليها المسلمون شمالاً ، وهى تبعد نحو ٨٠٠ كيلو متر شمال جبال البرت ، وإن وصول العرب فاتحين إلى ذلك الحد ، لدليل قاطع على ما امتازوا به من جرأة وقوة وإيمان تصنع المستحيلات ، ولا يقلل من هذا الفضل أنهم لم يستطيعوا البقاء عند ذلك الحد ، فالواقع أن البقاء عنده كان مستحيلاً إذا نظرنا إلى الظروف العامة التى تمت فتوح المسلمين فى « غالة » خلالها ، فإن عنبسة كان يوغل فى قلب أوروبا الغربية نفسها وكانت الشعوب الجرمانية متراسّة يلى بعضها بعضاً ، ثم إن الفرنجة أصحاب هذه المنطقة كانوا يمرون فى فترة نهوض سياسى تولاه آل « كارل مارتل » الذين عرفوا بالكارولنجيين ليحلوا محل الميروفنجيين . وكان كارل مارتل وتسميه المراجع العربية « قارله » يجمع قوى أنصاره وينتظر الفرصة التى تسمح له بإثبات استحقاقه لتاج الملك من دون ملك الميروفنجيين الضعيف .

وأخذ عنبسة مع رجاله طريق العودة إلى الأندلس سنة ١٠٧ هـ / ٧٢٦م محملين بالغنائم بعد أن اجتاحوا حوض الرون كله ، وتخطوا اللوار ووصلوا إلى السين . ولا نستطيع القول بأن عنبسة فتح جنوبى غالة أو حوض الرون ، لأنه فى الواقع لم يفعل شيئاً لتثبيت أقدام المسلمين فيما وصلوا إليه من البلاد ، ولكنه على أى حال الفاتح المسلم الوحيد الذى وصل إلى هذا المدى فى فتوحه ، وربما جاز تشبيه حملة عنبسة بحملة عقبة الكبرى ، مع اختلاف الظروف طبعاً .

وكان لا بد من حملات ضخمة أكثر نظاماً ليتم فتح هذه النواحي كما أتمت حملات زهير بن قيس وحسان بن النعمان وموسى بن نصير عمل عقبة بن نافع ، ولكن ظروف العرب فى المغرب والأندلس لم تكن تسمح لهم بمواصلة الفتوح بالقوة التى عهدناها فيهم ، وذلك بسبب الخلافات بين العرب أنفسهم ، ثم بينهم وبين البربر ، ثم إن حملة عنبسة أثارت مخاوف أوروبا الغربية كلها ، فقد اقتحمها العرب اقتحاماً وأوغلوا فى داخل بلادها ، دون أن يستطيع أحد مقاومتهم ولقد شعر القائم بأمر مملكة الفرنجة إذ ذاك وهو شارل أو كارل بأنه لا بد أن يقوم بعمل حاسم إذا عاد العرب مرة أخرى ، وبالفعل بدأ يستعد للقائه حاسم ، فأخذ يجمع القوات والسلاح والأزواد ، وصالح أمراء « برغندية » واتفق مع رجال « سبتمانية » ومع الدوق « أودو » ليقوموا معا بعمل حاسم ضد المسلمين .

ومن سوء الحظ أنه وقع انشقاقٌ في صفوف المسلمين المقيمين في الثغر الأعلى الأندلسي أي حوض الإبرو وكان له أثرٌ سيئٌ على سير الفتوح فيما بعد ، فإن الدوق أودو كان قد حالف المسلمين ، بل صاهر قائداً بربرياً من قوادهم يسمى «موقوسة» كان مركزه في الناحية الغربية من جبال ألبرت ، ولم يرض المسلمون عن هذا الصهر ، لأن موقوسة بدأ يأخذ جانب أودو ورجال أقطانية ، وانتهى الأمر إلى انفصاله عن المسلمين بمن معه من الرجال . وتذهب الروايات إلى أن عبد الرحمن الغافقي الذي كان يحكم أرغون وينظم أعمال الجهاد اختلف مع موقوسة اختلافاً شديداً ، وكان عبد الرحمن رجلاً عنيفاً بالغ الاستقامة من طراز عقبة بن نافع ، فاشتد مع موقوسة فزاده نفوراً وانضمت إليه جماعاتٌ كثيرةٌ من البربر .

وكان عنبسة قد استشهد في طريق عودته إذ دهمتهم قواتٌ نصرانيةٌ كبيرةٌ في خوانق جبال ألبرت ، وقد قُتل عنبسة في اللقاء في شعبان سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر ٧٢٥ م وتولى قيادة الجند وولاية الأندلس من بعده عذرة بن عبد الله الفهرى الذي حكم حتى ربيع الأول ١١٠ هـ / يونيو - يولية ٧٢٨ م .

وقد قام عذرة بعمليات عسكرية قليلة في غالة ولكن يبدو أن الجند الإسلامي الذي كان مركزاً في أرغون كان يقوم بضرباتٍ سريعةٍ وغاراتٍ عنيفةٍ في كل جهةٍ ومثل هذه الغارات والضربات تؤتى غنائمٍ وافرةً للمحاربين أنفسهم ، ولكنها تضر بالقضية الإسلامية الكبرى ، فهي من ناحيةٍ ترعب الناس من المسلمين ، وتلقى في روعهم أنهم أهل غارةٍ وسلب ونهب لا غير ، ومن ناحيةٍ أخرى فهي تفقد الجنود طابع النظام وخواص الجدية والإيمان والبسالة الحقيقية ، ومن أسف أن عذرة بن عبد الله الفهرى لم يستطع ضبط رجاله ، فذاع اسمه في جنوبي فرنسا كلها كرجل سفاكٍ نهابٍ ، وتطلع الناس هناك إلى من يخلصهم من هذه الغارات السالبة الناهبة ، وذلك كله مهد الطريق أمام شارل مارتل . بينما تعاقب على ولاية الأندلس بعد عزل عبد الرحمن الغافقي وذلك خلال الأعوام (١٠٥ - ١١٢ هـ / ٧٢٣ - ٧٣٠ م) سبعة ولاةٍ ، لم يقض أحدهم فيها أكثر من شهرين مما يدل على اضطراب الأحوال .

ومن حسن الحظ أن الولاية وقيادة الفتوح صارت في صفر ١١٢ هـ / أبريل

٧٣٠ إلى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ، فقد استطاع بحزمه وروحه العسكرية أن يضبط جنوده ويعيدهم إلى النظام من جديد ، حقاً إنه لم يستطع استعادة موقوسة إلى صفوفه ، ولكنه على أي حال أوقف تيار تدهور الفتوح إلى غارات ، ولو أن عبد الرحمن الغافقي كان أقل عنفاً عما كان في الواقع ، لاستطاع أن يصل إلى نتائج أحسن ، ولكنه كان جندياً عنيفاً بالغ الحماس لا يلتفت إلى سياسة أو كياسة مما قلل فرص النصر الكبير أمامه .

خرج عبد الرحمن الغافقي بحملته الكبيرة في أوائل ١١٤ هـ / ربيع ٧٣٢ م وكان معه ٧٠ ألف جندي تقريباً غالبهم من البربر ، في حين أن الروايات النصرانية تقول إنه كان يقود ٤٠٠ ألف مقاتل .

ولم يحاول عبد الرحمن الغافقي أن يكسب صداقة الدوق « أود » ، بل إنه لم يعمل على إيقافه على الحياد ، وأتى عبر جبال ألبرت في ١١٤ هـ / صيف ٧٣٢ م من الممرات رأساً إلى قلب بلاد أودو ، فاضطر هذا إلى طلب العون من رجال الفرنجة ، واستولى عبد الرحمن على « طولوشة » مرةً أخرى ، ثم ارتد شرقاً إلى حوض الرون فأجهز على ثورة قامت في مدينة « آرل » ، وعقب ذلك عاد عبد الرحمن واتجه نحو « برود » عاصمة أقطانية وتصدى له الدوق « أودو » فهزمه عبد الرحمن هزيمةً كبرى على ضفاف نهر الدوردوني ثم دخل المسلمون بورودو واحتلوها وأسرع « أودو » نحو شارل مارتل ، وتقدم عبد الرحمن فاحتل بواتيين بعد صراعٍ عنيفٍ وشرع يستعد للسير شمالاً نحو باريس .

وعجل شارل مارتل الذي تسميه مراجعنا « قارل » فحشد كل ما استطاع من قوة للقاء المسلمين ، واستنفر الناس استنفاراً فتضخم جيشه ، وسار جنوباً للقاء العرب شاعراً أن هذه فرصته الكبرى لكي يثبت جدارته بالملك من دون الميروفنجيين .

وكان الجيش الإسلامي كبيراً ولكن ليس بالضخامة التي يصفه بها المؤرخون النصارى . وينبغي قبل أن نقص تفاصيل المعركة القادمة أن نلاحظ :

أولاً : أن الجيش الإسلامي رغم شجاعته وارتفاع قواه المعنوية ، كان قد بعد جداً عن بلاد الإسلام ، وأصبح الآن على بعد ٤٠٠ ك.م تقريباً شمال جبال ألبرت ،

وجبال ألبرت تبعد ٩٠٠ ك.م عن قرطبة ، وهذه مسافاتٌ واسعةٌ جداً تجعل موالاة الجيوش بالمؤن والأزواد والأمداد أمراً عسيراً ، ولو أرسل عبد الرحمن الغافقي رسالة استنجد إلى قرطبة فإن حاملها لا يصل في أقل من شهرين ، في حين أن «قارله» كان يحارب في بلاده وبين أهله وعشيرته .

ثانياً : كانت الغالبية العظمى من المسلمين من البربر ولم تكن العلاقات بينهم وبين العرب أهل القيادة على ما ينبغي في هذه الظروف ، ولم تكن لدى عبد الرحمن الغافقي من السياسة وبعد النظر ما يمكنه من إزالة أسباب الخلاف في الجيش ليستطيع السيطرة الكاملة على قواته .

ثالثاً : كان الوقت خريفاً وهو موسم الأمطار الثقيلة في هذه النواحي والمسلمون لا يستريحون للبرد والمطر ، وكانت تلك المناطق كلها غابات ، والفارس العربى لم يكن يحسن الحرب في الغابات ، ثم إن خيول المسلمين العربية الضامرة تأثرت دون شك بالبرد والأمطار ، ولم تعد تستطيع الحركة بنفس الخفة التي تعمل بها في الجو الدافئ الجاف .

رابعاً : يبدو أن عبد الرحمن الغافقي كان جندياً عظيماً ، ولكن كانت تنقصه القدرة على وضع خطة محكمة للقتال كما رأينا مثلاً عند حسان بن النعمان وطارق بن زياد ، فقد استمر عبد الرحمن في سيره حتى لقيه الفرنجة .

وأخيراً : لدينا مسألة الغنائم الكثيرة التي كان الجيش الإسلامى يسحبها وراءه ، ويفهم من بعض الروايات أن خوف المسلمين على ضياع هذه الغنائم كان من أكبر أسباب الهزيمة .

وقد كان اللقاء على بعد ٢٠ كيلو متراً شمال «بواتيه» في الطريق إلى «تور» وجنوبى مجرى اللوار ، في موضع قريب من طريق رومانى قديم هو المسمى «بالبلاط» ، وفي هذا الموضع قرية تسمى الآن مواسيه لا باتاى Moissias la Bataille وربما كان موقعها يحدد مكان المعركة .

أما تاريخ المعركة فالرأى السائد اليوم أنها بدأت في ١٢ أو ١٣ أكتوبر ٧٣٢م / أواخر شعبان ١١٤هـ ، واستمرت إلى ٢٠ أكتوبر أى أوائل رمضان من تلك السنة .

دارت المعركة إذن أكثر من أسبوعٍ مما يدل على أنها كانت معركةً حاميةً ،
والحق أن كلا من الجانبين بذل أقصى وسعه في القتال ، وصبر المسلمون صبراً
طويلاً حتى تجمعت عليهم قواتٌ نصرانيةٌ من كل ناحيةٍ ، فلم يقتصر الأمر على
الفرنجة بل كان هناك كثيرون من أجناسٍ جرمانيةٍ أخرى ، وآخر مراحل المعركة
كان هجوماً عنيفاً على مؤخرة الجيش الإسلامي ، فانتهبت الغنائم وتزعزع نظام
الجيش ودقت ثغراتٌ نفذ منها الأعداء ، وفي أثناء ذلك استشهد عبد الرحمن
الغافقي بسهم أصابه ، وكان هذا نذير الهزيمة . وقد استمر القتال مع ذلك حتى
هبط الليل فتحاجز الفريقان ، وانتهزت فلول المسلمين الفرصة فتسللت من مكان
المعركة تحت الظلام ، فلما أصبح الفرنجة لم يجدوا للمسلمين أثراً ، ولكنهم وجدوا
ذخائرَ عظيمةً فانتهبوها ولم يفكروا في تتبع المسلمين ، فسلمت البقية الباقية منهم
وعادت إلى أرغون .

وعندما بلغ الخبر إلى عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ، عامل أفريقية ولى
عبد الملك بن قطنٍ الفهرى من قبله على الأندلس ، فأسرع هذا إلى أرغون ، وفي
الطريق أعاد الهدوء إلى أملاك المسلمين في جبال ألبرت وجنوب فرنسا ، وثبت
سلطان المسلمين في سبتمانية وعقد معاهداتٍ مع نفرٍ من الرؤساء خلفوا الدوق
أودو في حكم نواحي أقطانية وتمكن في وقتٍ قصيرٍ من أن يتلافى الكثير من الأثار
السيئة التي تخلفت عن هزيمة البلاط ، ومن حسن الحظ أن « كارل » شغل عن
المسلمين بأعداءٍ كثيرين من أبناء جنسه في شمال مملكته ، فأتيحت الفرصة
للمسلمين ليعيدوا تنظيم أنفسهم من جديد .

وقد تمكن عبد الملك بن قطنٍ من إعادة تنظيم القوات الإسلامية بفضل قائدٍ
من قواده ، تسميه المراجع النصرانية يوسف وربما كان يوسف الفهرى . وقد فتح
يوسف هذا مدن « آرل وأبنيون وفالانس وليون » وثبت حدود أملاك المسلمين
هناك ، ثم أخضع إقليم « دوفينية » الذي يمتد شرق نهر الرون ويشمل جزءاً
كبيراً مما يعرف اليوم بالرافيرا الإيطالية . واشتغل بعد ذلك بإعادة سلطان
المسلمين على نواحي جبال ألبرت . ونلاحظ أن المسلمين اتخذوا سياسةً جديدةً
لحكم ما بيدهم من فرنسا وهي إقامة حامياتٍ قويةٍ في المدن وتحصين قلاعها

واتخاذ هذه القلاع مراكز للحكم والحرب . هكذا كان الحال في ليون وأبنيون التي
يسمياها المسلمون صخرة أبنيون وأرل وغيرها .

ثم تولى بعد ذلك عقبة بن الحجاج السلولى فآتم إخضاع نواحي برغندية ،
وكان عقبة مجاهداً عظيماً ، فتجددت همّة المسلمين للقتال ، وأحس كارل أنه
لا مفرّ له من مواجهة المسلمين مرّة أخرى . وتقدم بالفعل بجيش
كبير يقوده هو وأخوه « شلدبراند » ، وسار نحو المسلمين أيضاً ملك
اللوباردين ، فاضطر المسلمون إلى إخلاء أبنيون وتراجعوا إلى أرغون وتحصنوا
فيها ، وهناك ثبتوا نحو ٣٠ سنة ، فلم تسقط إلا في سنة ١٤١ هـ / ٧٥٩م وكان
ذلك في أيام عبد الرحمن الداخل . وقد وجد عبد الرحمن أنه لن يستطيع المحافظة
على أملاك إسلامية شمال جبال ألبرت ، فأخلى هذه الأراضى واقتصر على شبه
الجزيرة الإيبيرية ، وكان ذلك خطأ منه ، لأن جبال ألبرت هى مفتاح إسبانيا ،
وكانت نتيجة تخليه تماماً عما يقع شمالها أن استعاد الفرنجة فيما بعد منطقة
قطلونية ، فأنشأ شرلمان فيها ولاية الثغر الإسباني « لاماركا هيسبانيكا » ،
ومعنى ذلك أن شبه الجزيرة انتقص أيضاً من الشرق بعد أن انتقص من الغرب
كما رأينا .

وقد بقيت للمسلمين جماعاتٍ محاربةٍ في نواحي سبتمانية ودوفينية ،
وانسحب معظمها إلى نواحي جبال الألب الحصينة حيث اتخذوا لأنفسهم مواقع
يقومون منها بأعمالٍ عسكريةٍ فيما يجاورها ، وقد وصلت أعمالهم الحربية إلى
قلب سويسرا ، ولكن هذه لم تكن فتوحاً ولا أعمالاً إسلاميةً ، إنما هى غاراتٍ معظمُ
هدفها الدفاعُ عن النفسِ والسلبُ ، وقد تلاشت هذه الجماعات شيئاً فشيئاً ، تاركةً
أسماءها على بعض النواحي وبعض وديان جبال الألب الجنوبية أو الشرقية ، من
أمثال « أمرو » وهو عمرو « واشمه » وهو هرثمة « وسارازان » وهو اسمٌ عامٌ يراد
به المسلمين عامةً في هذه النواحي .

عصر تأسيس الدولة الأموية الأندلسية

عبد الرحمن بن معاوية الداخل ١٢٨. ١٧٢ هـ / ٧٥٦. ٧٨٨ م

هشام الأول الرضى بن عبد الرحمن الداخل ١٧٢. ١٨٠ هـ / ٧٨٨. ٧٩٦ م

الحكم الأول ابن هشام (الرضى) ١٨٠. ٢٠٦ هـ / ٧٩٦. ٨٢٢ م

أصبح عبد الرحمن بن معاوية الملقب بالداخل أميراً على الأندلس ، وهو لا يعرف عنه إلا القليل ، بل لم تكن علاقاته بعرب الأندلس وبربره وأهل البلاد أول الأمر متينةً ، يستطيع الاطمئنان إليها ، ولكنه كان رجلاً موهوباً جمع صفاتٍ كثيرةً : السيادة والحزم والسياسة والكياسة وبعد الهمة وحسن التدبير رغم أن سنّه كانت صغيرةً إذ ذاك ، ولكنه ورث من جده هشام بن عبد الملك خِصَالاً أهلتة للرياسة ، فقد كان هشام بن عبد الملك من خيرة رجال العصر الأموى، وكان عصره حافلاً بالأحداث حتى يمكن أن نعتبره مدرسةً تكون فيها نفرٌ من خيرة المتأخرين من بنى أمية ، منهم : مروان بن محمد الجعدى وعبد الرحمن ابن معاوية بن هشام هذا ، فبدأ يرقب أموره بهدوء ويتلقى الثورات التى قامت عليه ، فى حزم وثبات ، ومضى قدماً فى تثبيت أركان إمارته التى وضع أول أحجارها وكان عليه بعد ذلك أن يجعل لها جذوراً ويقويها بدعائم .

ومن أول الأمر نجد عبد الرحمن يسير فى العمل سير من يعرف الدولة ونظامها وما ينبغى لها من قواعد ، فنجده يرتب الإدارة المركزية ، معتمداً على رجال من موالى بنى أمية ، اختارهم اختياراً حسناً مثل « تمام بن علقمة ويوسف ابن بختٍ وبدرٍ مولى عبد الرحمن نفسه وعبد الواحد بن مغيث الرومى وعبد الحميد بن غانم وشهيد بن عيسى بن شهيد بن الوضاح الأشجعى وعبد السلام ابن عبد الله جد بنى عبد الرؤوف وعبد الله بن وانسوس المكناسى ، مولى سليمان ابن عبد الملك . وسيصبح أولئك الرجال وأبناؤهم من عهد القوة والنظام الأموى والأندلسى على طول تاريخه ، فإن الأمراء كانوا يختارون قوادهم وكبار موظفيهم من بينهم لأن معرفة الإدارة وشئون الحكم تأصلت فى بيوتهم . وأهم بيوت أهل

الحكم هذه التي تميزت على غيرها ، وكثر ظهور النابهن من بين أفرادها في ميادين الإدارة والقيادة وشئون المال وتولى العمالات والوصول إلى مراتب الإدارة مرّة بعد مرّة ، بيوت : « تَمَامِ بن علقمة وعبد الواحد بن مغيث وشهيد بن عيسى ابن شهيد وأبو الغمر حسان بن أبى عبدة » ، وستنضم إليها وتتفرع منها في الطريق بيوتٌ أخرى ، ولكنها بيوت موالٍ أيضاً . ومن يدرس تاريخ بنى أمية الأندلسية لا بد أن يدرس تاريخ هذه البيوت الموازية لها ، وأهمها : « بنو أبى عبدة وبنو عبد الرؤف وبنو شهيد » ، وأبناء هذه البيوت لهم فضلٌ عظيمٌ على بنى أمية الأندلسيين وما وصلوا إليه من نجاح .

كان عبد الرحمن الداخل هو الذى وضع ذلك الأساس ، لأنه كان فى حاجة بالفعل إلى رجالٍ يعتمد عليهم فهو غريبٌ عن البلاد ، لا يعرف عن أهلها إلا القليل ، ومن حسن الحظ أن هؤلاء الموالى جميعاً تصاهروا مع أهل البلاد ، فنشأت بيوتهم أندلسية فى طبيعتها ، ونشأ أولادهم أندلسيين فى مزاجهم وعواطفهم ، وإن كانوا عرباً فى روحهم وثقافتهم ، مسلمين أمناء فى ديانتهم . وسيسير بنو أمية أنفسهم فى ذلك الطريق ، سيتزوجون من أهل البلاد ، وينبض فى عروقهم الدم الأندلسى ، وابتداءً من أيام هشام بن عبد الرحمن ، لا نتعجب عندما نعرف أن لغة الحديث فى القصر والشارع وشئون الأسر والأسواق ، كانت مزاجاً من العربية والإسبانية ، بينما كانت العربية لغة الدولة والدين والأدب والعلم والرسميات . وقد صاحبت هذه الثنائية الثقافية الشعب الأندلسى على طول تاريخه .

قامت دولة عبد الرحمن ، على عونٍ كبيرٍ من العرب اليمينيين والبربر البلديين ، وقد تصور اليمينيون البلديون أن انتصار عبد الرحمن ، معناه أن الدولة صارت دولتهم وأنهم يستطيعون الآن أن يتصرفوا كيف يشاؤون ، ويستمررون على أسلوب الفوضى والاستخفاف بالناس والأموال والإغراق فى العصبية القبلية ، التى وصلت بالاندلس إلى الحالة السيئة التى رأيناها خلال عصر الولاة . ولكنهم فوجئوا بأن العهد الجديد لن يعترف بقبسيةٍ أو يمنيةٍ ولا يفرق بين شاميين وبلديين أو بربرٍ أو أهل البلاد ، إنهم جميعاً أهل وطنٍ واحدٍ ، ولا بد لهم من الخضوع لقرطبة ، وقد أنكر اليمينيون ذلك إنكاراً شديداً واعتبروه جداً لفضولهم ، فتوالت ثوراتهم على عبد الرحمن فى كل ناحية ، وقد اعتمد فى

حربهم على مقاتلى بنى أمية ، وعلى جند الكور المجندة وعلى حشود البربر وأهل البلاد ، وكانت خطته معاجلة الثائرين قبل أن يجمعوا أمرهم ، وقد عادت هذه المبادرة على عبد الرحمن بنفَع كبير ، فقضى دون كبير مشكلة على ثورات اليمنيين فى الجزيرة الخضراء وإشبيلية وطليطلة وباجة .

وكانت بعض هذه الثورات خطرةً حقاً مثل ثورة «العلاء بن مغيث اليجصبى» فى باجة ، لأن هذا الرجل جمع جمعاً عظيماً من اليمنيين والفهرين وجند مصر ، ودعا لبنى العباس وكتب إليهم يطلب سِجلاً بالحكم ورخّبوا هم بذلك ، ولكن عبد الرحمن قضى على الثائرين فى حزم وقوة سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م ، وقد حاول زعيم يمنيّ آخر هو « سعيد اليجصبى » المعروف « بالمطرى » ، أن يثار لقتلى ثورة العلاء بن مغيث ، واستنفر اليمنيون للثورة على عبد الرحمن فى « لبلة » جنوب غرب الأندلس فقضى عليها هى الأخرى وعلى محاولةٍ مماثلةٍ فى إشبيلية .

وكانت آخر ثورةٍ خطيرةٍ واجهها عبد الرحمن هى ثورة رجلٍ بربريٍّ يسمى « شقياً » أو شعياً بن عبد الواحد ، زعم أنه من أبناء فاطمة الزهراء ، وقد قامت فى منطقة وعرةٍ هى « شنتمرية » ولم يستطع عبد الرحمن القضاء على هذا الدعى الفاطمى إلا بعد جهدٍ شديدٍ سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م .

وقد تعرض الأندلس أيام عبد الرحمن إلى محاولةٍ قام بها شارلمان للاستيلاء على سرقسطة فى الثغر الأعلى . ولو وفق شارلمان إلى ذلك لما كان من المستبعد أن يستطرد إلى غيرها من عواصم الأندلس . ومن حسنِ الحظ أن الأندلس كان مجتمعاً تحت راية عبد الرحمن فى ذلك الحين ، فتمكن من النجاة من الخطر المحيق به ، ومن الأسف أن الذين لفتوا نظر شارلمان إلى الأندلس ودعوه إلى غزوه ووعده المعاونته ، كانوا عربياً يتزعمهم « سليمان بن يقظان الكلبى » المعروف بالأعرابى ، وإلى برشلونة ، « والحسين بن يحيى الأنصارى » وإلى سرقسطة ، وقد بلغ عطشهم للانتقام من عبد الرحمن إلى درجة أنه هان عليهم أن يعرضوا الإسلام والعروبة فى الأندلس للخطر ، فى سبيل أحقاد شخصية . وقد بلغ بهم الأمر أن ذهبوا للقاء شارلمان فى « بادربورن » فى ولايةٍ وستاليا فى غرب ألمانيا الاتحادية الحالية ، واتفقوا معه على أن يعاونوه على الاستيلاء على سرقسطة .

وفى شوال ١٦١ هـ / ربيع ٧٧٨ م سار شارلمان نحو إسبانيا فى جيشٍ ضخمٍ ،

فعبّر جبال ألبرت من الشرق أى من ناحية « نربونة » ودخلت بعض الفرق الفرنجية في ممر في الجزء الغربي من الجبال يسمى « رنشفالة » أو « باب الشزرى » ، وكان الاتفاق أن يعاونه البشكونس من حلفاء المسلمين في ذلك العمل ، وأن يقوم « الحسين بن يحيى الأنصارى » بتسلم سرقسطة إذا وصل إليها ، ولكن بعد أن استولى شارلمان على بنبلونة ، ورأى جمهور المسلمين من أهل الثغر الأعلى أن سليمان بن يقظان الأعرابي قد خدعهم ، وأن الأمر سينتهى بغزو نصرانيّ أجنبيّ لبلاد إسلامية ، غيروا موقفهم وتحالفوا مع البشكونس على أولئك الغزاة ، ورفض الحسين بن يحيى الأنصارى أن يفتح أبواب سرقسطة ، فطال حصار شارلمان لها حتى أحس أنه لن يستطيع الاستيلاء عليها قبل نزول الشتاء ، فقرر العودة ، وغضب على سليمان بن يقظان الأعرابي ، واعتبره أسيراً هو وكل من كان بين يديه من رهائن العرب ، وانقلب راجعاً في سنة ١٦١ هـ / ٧٧٨ م .

وكان أسر سليمان بن يقظان ومن معه إيذاناً بانقلاب جميع مسلمى الثغر الأعلى وحلفائهم من البشكونس على شارلمان ، فقرروا الهجوم عليه عندما تتوسط قواته خوانق ممر رنشفالة الضيقة ويقول ابن الأثير^(١) إن « شارلمان لما بعد عن بلاد المسلمين واطمأن ، هجم مطروح وعيشون أبناء سليمان بن يقظان الأعرابي في أصحابهما ، فاستنقذا أباهما ورجعا به إلى سرقسطة » . وهذه هى الإشارة العربية الوحيدة لواقعة خطيرة سيكون لها صدئ بعيد في الأدب الشعبى الفرنسى ، ذلك أن مؤخرة جيش شارلمان كان يقودها فارس من إقليم بريطانيا ، يسمى « هر دولاند » ويعرف عادة « برولاند Roland » فانقض عليها المسلمون والبشكونس ومزقوها وقتلوا رولاند ، رغم ما أبدى هو ومن معه من بسالة ، ثم وقع قتال عنيف انتهى بالقضاء على معظم قوات شارلمان . والتاريخ التقليدى لهذه الواقعة ، « ملحمة رولاند المشهورة » ، ومعظم حوادثها لا صلة لها بالواقع التاريخى ، لكنها ترينا تصوّر الناس في جنوب فرنسا للمسلمين وعقيدتهم ، وهذه الملحمة تعتبر من المعالم الحاسمة في تكوين اللغة الفرنسية .

وبعد ذلك بسنتين سار عبد الرحمن إلى سرقسطة ، ففضى على بقايا الثائرين

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ج ٦ صفحة ٥ .

ومَهَّد أمورَ إقليمِها ونظمه ودخل بنبلونة عاصمة البشكونس وعاهدهم على الخضوع للمسلمين وأداء الجزية ، وكان ذلك سنة ١٦٢ هـ ، ١٦٤ هـ / ٧٨١ م .

نظرة عامة على حكم عبد الرحمن الداخل وأعماله :

وقد قضى عبد الرحمن ما بقى من حكمه في هدوءٍ نسبيٍّ ، وانصرف إلى تثبيت دعائم دولته . ومن الطريف أنه عندما استقر أمره بعث يستدعى بقايا بني أمية ، ليستعين بهم في أمره فأقبل إليه الكثيرون منهم ، فعهد إليهم بمسئولياتٍ كبرى ولكنه فوجيء بحسد الكثيرين منهم له ورغبتهم في القضاء عليه فيئس من ناحيتهم ، وهكذا تبين أن هذا الرجل العظيم يلقى نكران الجميل وانقلاب الرجال ، مما جعله بعد ذلك يقتصر على المخلصين من موالى بني أمية ومن انضم إليه من أهل البلاد ورجال الكور المجندة وهم من العرب ، وقد أنشأ عبد الرحمن إلى جانب ذلك قوةً جديدةً من الصقالبة ، وكان أمراء المسلمين والأوربيين في ذلك العصر يشترتون أبناء الصقالبة صغاراً من بلاد نصرانية ، ويُرَبُّون في البلاد الإسلامية تربيةً إسلاميةً عربيةً ، وينشأون جنداً خالصاً للإمارة ورجالها ، وقد أصبحت هذه القوة مع الزمن عنصراً أساسياً من عناصر القوة السياسية العسكرية للأندلس .

وقد توفي عبد الرحمن في ١٠ جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٢ أكتوبر ٧٨٨ م وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حكم الأندلس ٢٢ سنةً ، كلها عملٌ متواصلٌ ومصاعبٌ وأهوالٌ . فهذا الرجل الذي شاد بنفسه ملكاً ، وأنقذ بلداً ووضع أساسَ تاريخِ شعبٍ وحضارةٍ أميةٍ ، لم يسترح يوماً منذ تولى أمر الأندلس في ذى الحجة ١٢٨ هـ / ٧٥٦ م ، فقد كان البلد الذي تولى أمره ضحماً .

وقد دخل عبد الرحمن الأندلس غربياً وحيداً تقريباً ، فتمكّن بذكائه ومواهبه وشجاعته وعمله المتواصل ، من أن يقيم صرح دولةٍ ، تعد من أمجد دول الإسلام ، أقامها على أسسٍ إداريةٍ وسياسيةٍ وماليةٍ متينةٍ أثبتت الأيام صلابتها . وهو من هذه الناحية يفوق معظم مُنشئى الدول في تاريخ الإسلام . ويزيد من قيمة عمله أن الناس الذين قُدِّر له أن يعتمد عليهم ويحكمهم قد درجوا على الفوضى والانانية والقسوة وقصر النظر وكان الكثيرون من زعمائهم ، لا يُبالون بمصير الإسلام

والعروبة ، في سبيل مصلحةٍ يسيرةٍ يحققونها ، أو ثارٍ يدركونه ، أو كبرياءٍ يرضونها . فلم يكن عبد الرحمن ليستطيع معاملة أولئك الناس باللين والمحبة والأخلاق ، فكان لا يبالي في سبيل الدولة بأي شيء . وقد وصفه « دوزي » بالمكيافيلية والقسوة والخبث ، ولكن دوزي ينسى أن هذه كانت أساليب كل أصحاب الأمر في الغرب الأوربي في ذلك العصر الذي كان الناس فيه يرفضون الخضوع للدول ونظمها . ولهذا فقد اشتد في نقد عبد الرحمن . والحقيقة أن هذه الخلال التي لا نرضاها في هذا الرجل ، لم يكن عنها غنى لرجلٍ مثله في مثل ظروفه ، وكان لا بد على أي حالٍ من القضاء على الفوضى وعواملها وإقرار النظام . وقد نجح عبد الرحمن في ذلك ولكننا لا مندوحة لنا من أن نقرر أنه كان دائماً يختار الوسيلة الأقسى والأشد ، رغبةً منه في الخلاص من المشكلة بسرعة ، وبعد أن توالى نجاحه ، أصبح شديد الاستبداد ، لا يقبل مناقشة أحدٍ ، وقد غضب على بدرٍ مولاه بعد طول خدمته إياه وأقصاه عنه في شـبـه نفيٍ بسببٍ صغيرٍ لا يستحق ، وعامل رجاله بعنفٍ وحزمٍ بالغين .

وكان عبد الرحمن يشبه إلى حدٍ كبيرٍ جدّه هشام بن عبد الملك ، ولكنه كان أحسنَ حظاً منه ، لأن هشام بن عبد الملك تولى أمر دولةٍ كانت في سياق الموت ، أما عبد الرحمن فقد تولى دولةً ناشئةً يضم كيائها مواردَ متدفقةً بالقوة والحيوية فأقبل ينتفع بها على أحسن وجهٍ مستطاع .

ومن هذه الناحية كان عبد الرحمن أموياً صرفاً يشبه في كثير من خلاله مروان ابن الحكم وعبد الملك وابنه ، وفي بعض الأحيان نلاحظ عنده مشابهة من الوليد ابن عبد الملك (في موضوع المنشآت والعمائر) وملامح من هشام بن عبد الملك (في ناحية السياسة المالية وتدبير مصروفات الدولة) أي أنه نقل إلى الأندلس خيرة صفات بنى أمية المشاركة ، ووضع لنفسه ولمن جاء من بعده سياسةً حكيمةً لدولة سليمة البناء ، تقوم على أسسٍ سياسيةٍ وإداريةٍ وماليةٍ تمكّنها من مقاومة عوامل الضعف والتدهور .

وإلى جانب ذلك كان عبد الرحمن رجلاً شهماً نشيطاً ذا همّة ، وعاملاً لا يتعب ، فخلال إمارته التي امتدت ثلاثاً وثلاثين سنةً ميلادية ، لم تقعد له همّة

ولم يركن إلى الراحة إلا في فتراتٍ قصيرةٍ جداً سجلها المؤرخون . ومن ذلك أن « ابن عذارى » ، يكتب في بعض سنوات خلافة عبد الرحمن العبارة التقليدية التي تقول : « وفي هذه السنة لم تكن للأمير حركةٌ » ، وكان أحسن ما فيه عقله المرتب وطريقته المنظمة في العمل ، فكان يدرس مشاكله في هدوءٍ ويتلقى أخبار الثورات التي تقوم عليه بجنانٍ ساكنين ، ثم يرسم خطته للقضاء على الخصم ، ثم إنه كان على الجملة حسن المعاملة لرجاله ، مكرماً لهم حافظاً لعهودهم ، وإن أخذ عليه سرعتة إلى الغضب وميله إلى العنف مع أعدائه والبطش بهم ، ولكننا لا نقرأ في أخباره ما تعودنا أن نقرأه في أخبار أمثاله من الغدر بالوزراء ونكبة الكتاب ومصادرة أموالهم ، وهذا لا يمنع من القول أنه كثيراً ما كان يلجأ إلى الحيلة والتدبير والغدر ، كما فعل مع الصميل بن حاتم ، إذ أنه أمر بخنقه في سجنه ، ولكن الغدر والقسوة كانت من أسس الحكم في العصور الوسطى ، وكانت السياسة تفرض على أصحابها أخلاقاً وأفعالاً لا نرضى عنها ، وهذا يخفف من مسئولية عبد الرحمن عما يُتَّهم به من أعمال القسوة والعنف والغدر في كتب التاريخ .

وعندما توفى عبد الرحمن مخلفاً العرش لابنه هشام ، ترك دولةً ثابتةً الأركان ، فلم يكن على ابنه هشامٍ إلا أن يسير في خطوات أبيه .

وقبل أن ننقل إلى هشام ، لا بد أن نشير إلى عناية عبد الرحمن بالإنشاء والتعمير ، ففي أيامه بدأ عمرانُ قرطبة ، وهو الذي أنشأ الجزء الأول من مسجدها الجامع قبالة قصر الإمارة ، وبدأ بذلك تاريخ أكبر أثرٍ معماريٍّ في تاريخ الغرب الإسلامي كُليَّةً .

وعنى عبد الرحمن كذلك بقصر الإمارة ، وكان يقوم على مساحةٍ فسيحةٍ واسعةٍ قبالة المسجد ، وقد رأى عبد الرحمن أن تستعمل هذه المساحة كلها لتكون قصوراً للأمير وأهله وإدارة دولته فأنشأ قصراً خاصاً لنفسه وعدداً من القصور الصغيرة إلى جواره لنسائه وأهل بيته وأحاط هذه القصور كلها بالحُدائق الجميلة وأدار عليها سوراً .

وكانت تلك المساحة تمتد حتى تقرب من ضفة نهر الوادي الكبير ، فعمد عبد الرحمن إلى إنشاء قصور الإدارة ناحية النهر ، وفتح باباً في السور في الشارع

بين النهر والسور ، وسمي هذا الباب « بباب السدّة » ، لأنه كان يواجه سدّة جعلوها في مجرى النهر لكي يرتفع مستوى الماء ليحرك ناعورة أو ساقية كبيرة أقيمت قرب الشاطئ لرفع الماء من النهر وإيصاله إلى داخل المدينة ، وقد سمي الحى الصغير الذى أحاط بتلك الناعورة « بمُنية الناعورة » .

وباب السدّة هذا كان مفتوحاً للجمهور ، إذ أنه كان يُفضى إلى مكاتب الدولة التى كانت تزداد عدداً وموظفين مع الزمن ، وكلما مضى عددٌ من السنوات أنشئت دواوين أخرى حتى أصبحت الجهة القبلية من قصور الإمارة مركزاً إدارياً للدولة فى قرطبة ، وإلى جانب باب السدة جلس من نسميهم بالكتاب العموميين الذين يكتبون للناس الشكاوى والرقاع التى يتقدمون بها إلى مكاتب الدولة .

وكان أولئك الكتاب من صغار طلبة العلم الذين يرتزقون من وراء هذا العمل ، وكانوا يقيمون فى ضاحية جنوبى قرطبة تسمى ضاحية أو « ربض شقنדה » ، وكان هذا الربض مسكنَ العمال من كل صنفٍ ، وكان بينه وبين مدينة قرطبة قنطرةً حجريةً تعرف بقنطرة الوادى وأصلها من بناء الرومان ، ولكن العرب جدّدوها مرّةً بعد مرّةً ، وكانت من نزعات الأندلسيين المشهورة لأن تلك القنطرة القائمة على النهر كانت واسعةً قائمةً على أرجل أى أعمدةٍ فى ماء النهر ، وكانت عامرةً بالحركة لأنها كانت تؤدى من ربض شقنדה إلى « المحجة العظمى » وهى الشارع الرئيسى الذى يقطع قرطبة من جنوبها إلى شمالها بادئاً من قنطرة الوادى ومُنْتَهياً إلى الباب الشمالى الأقصى الذى عُرف بباب « عبد الجبار » ، وكان من أشهر أبواب سور قرطبة .

وإلى الشمال من قرطبة وعلى بعد نحو أربعة كيلو مترات منها أنشأ عبد الرحمن لنفسه قصرأ ريفياً على مثال البوادى أى قصور البادية ، التى كان خلفاء بنى أمية فى المشرق ينشئونها فى البادية ليقضوا فيها أوقات سمرهم بعيداً عن زحمة المدن وأعين الناس .

وكان هذا القصر الذى بناه عبد الرحمن يقوم على تلٍّ مرتفعٍ يسمى « تل الرصافة » ولذلك كان القصر يسمى بقصر الرصافة ، وهو يطل من الجنوب على الحقول التى تفصل بينه وبين قرطبة ، ومن الشمال كان يطل على « فحص » أى

أرضٍ فضاءٍ واسعةٍ سُميت « بفحص السرادق » ، وفي ذلك الفحص أو الميدان الواسع اتخذ عبد الرحمن المنازل لجنده وقواده ، وكان يحرص على تربيتهم وتدريبهم تدريجياً منظماً مستمراً ، وفي نهاية شتاء كل سنة كان ينادى بالنفير فتأتى إلى قرطبة حشود العرب من أهل الكور المجنّدة ومن ينضم إليهم من « المطوعة » أى الراغبين فى الجهاد فى سبيل الله دون أجر ، مكثفين بنصيبيهم من الغنائم وما يكتب لهم من ثواب الجهاد . وإلى هذه القوات كانت تضاف قوات الصقالبة الذين كان عبد الرحمن يشتريهم صغاراً ويرببهم تربيةً عسكريةً دينيةً إسلاميةً ليكونوا جنداً للإمارة وخداماً لها فى شتى شئون القصر والحكم وكانوا يسمون بتسميةٍ عاميةٍ هى « الصقالبة » ومعناها « السُّلّاف » أى من الأصل السُّلّافى ، وهو أصل الروس ، ولكنهم فى الحقيقة كانوا يتكونون من كل أجناس أوروبا ، وكان هناك تجارٌ مخصوصون بهذا العمل ، فكانوا يشترون أولئك الغلمان من الدول القريبة التى كانت تأسرهم وتعرضهم للبيع فى أسواقٍ معروفةٍ لأولئك التجار ، وقد استمر عبد الرحمن يشتري من أولئك الصقالبة حتى صار له منهم جيشٌ عدته أربعون ألفاً ، كان من بينهم حرسه الخاص وخيرة جنده . وكان العاملون فى القصر من أولئك الصقالبة يُسمون بالفتيان وينقسمون قسمين « الفحول » و « الخصيان » ، فأما الفحول فكانوا يُستخدمون للحرب وأعمال الدولة وأما الخصيان فكانوا يخدمون داخل القصور ، وكان تجار المسلمين يشترونهم من تجار اليهود الذين تخصصوا فى إجراء عمليات الخصى لأولئك الشبان الأسرى المساكين قبل بيعهم لمن يريد .



هشامُ الأوَّل بنُ عبدِ الرَّحْمَنِ المعروفُ بالرَّضِيِّ

وخلَّفَ عبدُ الرحمنِ ابنَهُ هشاماً ، ولم يكن أكبرَ أولاده ، ولكنه كان محبباً إلى أهل الدولة والفقهاء ورجال القصر لدمائه كانت في خلقه ، ولهذا تخطى أخاه سليمان ، وكان جندياً لا يهتم إلا بالجيش وأمله .

بدأ هشامٌ حكمه في جمادى الآخرة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وأمه أم ولد جليقية ، وكان يُبدي ليناُ وورعاً ، ولكنه كان في الحقيقة سياسياً يجتذب الناس بمظهر التقى ، ولم يفعل شيئاً ذا بالٍ أثناء حكمه القصير ، ولكن الناس ارتاحوا له ، لأنهم كانوا قد تعبوا من عنف أبيه وسرعته في البطش واستمراره في الحركة والعمل ، ونستطيع أن نعتبر إمارة هشامٍ إكمالاً لإمارة عبد الرحمن .

ولم يعكر صفو إمارة هشامٍ إلا ثوراتٌ قام بها بعض اليمانيين ، وخاصةً في إقليمى قطلونية وسرقسطة ، ومحاولاتٌ قام بها نصارى الشمال للاتساع جنوباً ، ولكن قواد هشام عرفوا كيف يوقفون ذلك التيار .

دخول مذهب مالك الأندلس :

وأهم ما حدث في عصر هشام هو دخول مذهب مالكٍ إلى الأندلس ، وكان الأندلسيون قبل ذلك على مذهب « الأوزاعى » إمام أهل الشام ، ويمتاز فقهه بالناحية العملية ، فهو يرى أن كل ما هو نافعٌ للمسلمين ويتفق مع صالح الجمهور فهو من الإسلام ما دام لا يتعارض مع أوامره ونواهيه . وهو مذهب أخذت منه المذاهب الكبرى بأطراف ، ولكن مالكاً يعممه ويجعله قاعدةً . ومن سوء حظ « الأوزاعى والليث بن سعدٍ وطاؤوس » وأمثالهم من أصحاب المذاهب الفقهية الأولى التى دثرت ، أنهم لم يرزقوا تلاميذٌ يدنون مذاهبهم وينشرونها في الآفاق ، أما مالكٌ بن أنسٍ فقد كان أحسن حظاً ، فقد رزق تلاميذٌ نبهاء أمثال « عبد الرحمن بن القاسم وأشهب بن عبد العزيز » ومن إليهم من منشئى المدرسة المالكية المصرية ، ثم « أسد بن الفرات وعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون » اللذين أدخلوا مذهب مالك إلى المغرب ، وعملاً على نشره مع طائفةٍ من أجلاء الفقهاء .

وفي الأندلس أيضاً كان مذهب مالك حسن الحظ ، فقد كان مالك معاصراً لهشام بن عبد الرحمن ، معجباً به لا يكف عن الثناء عليه ، وكان ذلك يبلغ هشاماً فيستريح إليه ، فلما وفد على الأندلس أوائل تلاميذ مالك الذين درسوا عليه ، من أمثال « الغازي بن قيس وزياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، وعيسى بن دينار وسعيد بن أبي هند » ، رحب بهم هشام وجالسهم وأذن لهم في تدريس مذهب مالك في المسلمين وأخذ القضاة بالحكم به ، ثم اتخذ كبار المالكية قضاة وفقهاء مشاورين ، أى أهل شورى يستفتيهم الأمير فيما يجريه من أمر ، وشيئاً فشيئاً أصبح المذهب المالكي المذهب الرسمي في الأندلس .

التقليد الشامي :

ومذهب مالك هو العنصر الحضاري الوحيد الذي قبلته الإمارة الأموية الأندلسية خارجاً عن نظم الأمويين في الشرق . وأهم هذه النظم العربية المطلقة في لغة الدواوين وأوساط الدرس ، فبينما كان العباسيون في الشرق يقبلون صوراً حضارية إيرانية وهندية ، كان الأمويون في الأندلس لا يقبلون إلا ما هو عربي . وهم لم يفعلوا ذلك بقانون سنوه ، وإنما كان اتجاهاً عاماً في الحياة ساروا فيه وتبعهم الناس ، فعلى الرغم من أن مسلكتهم قام في أوروبا ، إلا أن الحياة في قصورهم سارت على قواعد مشايخ القبائل ، فكانت قصوراً بادية ، تذكرنا ببوادي خلفاء بني أمية الشرقيين في الشام . ومن ذلك أن عبد الرحمن الداخل أنشأ لنفسه قصر الرصافة الذي أشرنا إليه . ولم يخرج حكام بني أمية الأندلسيين حتى أيام الناصر عن التراث والعصائد ، واعتمدوا على رجال ذوي همّة وبسالة وروح عربي ، وإن لم يكونوا من أرومة عربية خالصة ، فقد كان منهم بربر ونفر من أهل البلاد ، ولكنهم جميعاً استعربوا لساناً وفكراً وأسلوب حياة ، وصاروا يعدون أنفسهم عرباً . وقد بلغ من اهتمام هشام باللغة العربية أن جعلها لغة الكنيسة لنصارى الأندلس ، فترجموا إليها الكتاب المقدس ونصوص الصلوات ، وقد كان ذلك من أكبر العوامل التي أسرعت بتعرب أهل الأندلس ، وتحويل هذا البلد إلى مركز من مراكز الحضارة العربية ، ويعرف ذلك كله « بالتقليد الشامي » الذي التزمه أمراء بني أمية الأندلسيون وخلفائهم حتى نهاية عصر الخلافة .

وكان معظم الموالي الأندلسيين يعدون أنفسهم بين الشاميين ، لأنهم كانوا

موالى بنى أمية . وبنو أمية ظلوا حتى في الأندلس يعتزون بأنهم شاميون ، ولهذا فقد كانوا يفضلون أهل الشام على غيرهم ، وكانوا يتخذون في حياتهم ونظم حكمهم ما كان سائداً في بلاد الشام ، وهذا هو الذى أعطى هذا التقليد اسم الشامى .

وقد توفى هشامٌ بعد سبع سنواتٍ من حكمه ، فكانت سنةٌ عندما مات في صفر ١٨١هـ / أبريل ٧٩٦م لا تزيد عن أربعين سنةً ، وهى سنٌ صغيرةٌ جداً ، ولكن بنى أمية عامةً كانوا قصار الأعمار ، وطوال الأعمار منهم في الشرق قليلون ، أما في الأندلس فلا نعرف منهم من تخطى الخامسة والستين ، إلا الأمير عبد الله وعبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر .

ويُثنى معظم المؤرخين على هشام بسبب رضا الفقهاء عليه وقيامهم بالدعوة له ، وتصويره في صورة الأمير التقى الورع الرحيم . ولم يكن الرجل كذلك في الحقيقة وإنما كانت فيه قسوةٌ على أعدائه لا نجدها عند أمثاله ممن يوصفون بأنهم حكامٌ أتقياء ، فقد سمل عينى شاعرٍ يُسمى « أبا المخشى عاصم بن زيد » ، لأنه أثنى على أخيه ومنافسه سليمان ، وقتل ولدين من أولاد موالى بنى أمية ظلماً لريبةٍ في نفسه ، وقد اعتذر عن ذلك وبذل شيئاً من العوض ، ولكن ذلك لا ينقى الجناية . وقد أخفى الفقهاء ذلك عن العامة ، وزعموا أن هشاماً كان يخرج في الليل ويطوف في المساجد فإذا وجد فيها ناساً عاكفين على قيام الليل أعطاهم مالاً . وربما كان يفعل ذلك فعلاً ، ولكن ذلك كان سياسةً منه وخُبثاً .

ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة :

وقبل أن نستطرد إلى إمارة الحكم الأول بن هشام المعروف بالحكم الربضى ، نقول كلمةً يسيرةً عن ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة .

ذكرنا كيف وصلت جيوش موسى بن نصير إلى أوفييدو Oviedo وخيخون ، وكيف اعتصمت فلول القوط ومن انضم إليهم فيما وراء جبال كنتبرية ، في الناحية المسماة باسم أشتريس .

تذهب الروايات النصرانية إلى أنه كان من بين كبار القوط الذين لجأوا إلى هذه الناحية القاصية فارسٌ يسمى « بلاجيوس » ، ويسمى عادةً « بيلايو » ، ويُسميه

العرب « بلاى » وكان من أعوان غيطشة وأنصار لذريق ، فلما اعتصمت بقايا القوط في ناحية أشتريس ، أصبح بلاى رئيسهم وصاحب الإمارة عليهم .

وقد انتشرت هذه الفلول أول الأمر في النواحي المطلية على خليج بسكاي من جليقية إلى أشتريس ، ولكنها انكشمت إزاء حملات المسلمين المتوالية في ناحية جبلية شرقى أوفييدو الحالية عند البلد المسمى « كانجاس » واتخذت حصناً لها موضعاً جبلياً تصل فيه الجبال الكنتبرية إلى أعلاها عند قمم أوروبا ، وفي هذه الناحية موضع مغارة تسمى « كوفادونجا » ويسمونها العرب صخرة بلاى ، وقد حاول المسلمون الاستيلاء عليها أيام الحرب مع عبد الرحمن الثقفى سنة ٩٨ هـ / ٧١٨ م ثم ارتدوا عنها استصغاراً لشأنها أو يأساً من إمكان الاستيلاء عليها ، ولم تكن ذات أهمية في ذلك الوقت على أى حال .

وفي سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أثناء إمارة « الهيثم بن عبيد الكلابى » بعث حاكم النخر الأعلى « عثمان بن أبى نسعة » جيشاً إلى أشتريس للقضاء على بقية المقاومة النصرانية هناك ، وقد بذل رجال هذا الجيش جهداً كبيراً ولكنهم لم ينالوا شيئاً من بلاى وأنصاره . وتنسب الروايات النصرانية إلى بلاى انتصاراً كبيراً على المسلمين عند « كوفادونجا » ، وتعتبر هذا النصر نقطة البداية لتاريخ إسبانيا النصرانية ، ولكن ليس لدينا ما يؤيد ذلك .

وكانت هناك إمارة نصرانية أخرى صغيرة في الجزء الشرقى من بلاد كنتبرية أنشأها زعيم يسمى « بتروس » . ثم خلفه أميرٌ يسمى « ألفونسو » واتخذ لقب الدوق ، ثم تزوج ألفونسو ابنة بلاى وتوحدت مملكة أشتريس التى يسمونها العرب مملكة الجلالة .

وكان سكان هذا الجانب الشرقى مما يقع شمالى الجبال الكنتبرية حتى بلاد البشكونس يُعرفون باسم الكنتبريين ومن هؤلاء الكنتبريين وبقايا القوط ومن انضم إليهم من أهل شمال إسبانيا تكونت نواة مملكة الجلالة .

وألفونسو هذا هو منشئ المملكة النصرانية التى ستستمر في النمو والانتساع حتى تستولى على الأندلس من المسلمين ، وقد عاونه الحظ باشتغال المسلمين بالحرب الأهلية فيما بينهم على ما فصلناه قبل قدوم عبد الرحمن الداخل .

وحوالى منتصف القرن الثامن الميلادى كانت إمارة أشتريس تلك قد امتدت نحو الجنوب وعمرت حوض نهر المنيو واقتربت من حوض الدويرو ، واستولى ألفونسو الأول على أشترقة منتهزاً فرصة إخلاء المسلمين إياها بسبب المجاعة التى نزلت بالاندلس نتيجة الفتنة بين العرب والبربر .

وفى أثناء حكم يوسف الفهرى والصميل بن حاتم ، امتدت المملكة النصرانية على مهل ، وكذلك عندما شغل عبد الرحمن الداخل بحرب الثائرين ، سقطت فى أيدي النصارى مدن هامة مثل « لكة Lugo » وبرتقال Portucallies .

وعندما استقر الوضع لعبد الرحمن ، استرجع أهم هذه المدن ، وكان ملك أشتريس إذ ذاك يسمى « فرويلا Froila » ، وهو الذى خَلَفَ ألفونسو الأول ، وكان قاسياً عنيفاً سفاكاً فكرهه الناس ومالوا إلى محالفة المسلمين ، يتزعمهم فى ذلك ملك يسمى « مورجات أو مورقات » ، يقال إن أمه عربية . وعلى هذا استمر الأمر حتى تولى العرش ألفونسو الأول .

وفى الشمال الغربى كذلك نشأت إمارة نصرانية مستقلة فى بلاد البشكونس عُرفت باسم نبرة Navarra وقاعدتها بنبلونة وإلى غربيتها قامت ثلاث إمارات صغيرة فى جبال ألبرت هى على التوالي : أرغون وشرب وريباجورثا وقام الزعيم البشكونسى « اينيجوارىستا » Inigo Arista بتوطيد قواعد إمارة نبرة Navarra فى الغرب . وفيما بين مملكة الجلالقة التى تعرف أيضا بمملكة أشتريس وبين بلاد المسلمين امتدت منطقة خلاء حتى حوض نهر الدويرو ، وكان النصارى يحاولون الامتداد فيها إذا غفل المسلمون عنهم ويرتدون عنها إذا تنبهوا لهم ، وهكذا استمر الأمر حتى نهاية القرن الثامن الميلادى .

إمارة الحكم الربضى ١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م :

تعتبر إمارة الحكم بن هشام ، أو الحكم الأول المعروف بالربضى ، نهاية عصر القلاقل التى قام بها العرب للقضاء على الإمارة الوحيدة التى بسطت سلطانها على البلاد ، وكان الكثير من زعماء عرب البلاد وبربرها لا يسلمون بقيام هذه الدولة ، ولا تزال نفوسهم تطمع إلى العودة إلى الفوضى السابقة ، ولهذا فقد كثرت الثورات فى عصر الحكم واختلفت أنواعها ، ولكنها كانت فى الغالب ثورات

اجتماعية أو إقليمية لا فتناً عشائريةً أو قبائليّةً يقوم بها هذا الفريق من العرب أو البربر إذ ذاك بغية خلع طاعة الإمارة والتخلص من النظام ، وقد ثبت الحكم ثباتاً يدعو إلى الإعجاب ، وإن كانت شخصية الحكم نفسه كثيرة العيوب والمتناقضات وسياسته حافلة بالأخطاء . ذلك أن الحكم تولى أمر الأندلس شاباً في السادسة والعشرين من عمره ، وكان إلى جانبه عمّاه سليمان وعبد الله وغيرهم ، ممن كانوا يرون أنفسهم أحقّ بالملك منه ، ولا يعرفون من يؤيدهم من أهل البلاد وجماعات العرب ، فأقبلوا يدبرون عليه وينتظرون الفرصة للإيقاع به .

وكان هو نفسه شاباً ميالاً للمتعة والراحات ، وقد حسب أن أباه وجده قد مهّدا له الملك ، وما عليه إلا أن يستمتع . ونبض فيه عرق التعالي الأموى ، ونظر إلى من سواه من الناس في غير اكتراث ، واستخف بأهل قرطبة ورجالاتهم وأهان الكثيرين منهم ، وأهمل جانب الفقهاء الذين بلغوا مكانة كبرى في أيام أبيه هشام ، واكتفى بخدمه وحواشيه وندمائه ، وانصرف إلى اللهو والصيد والخمر ، حتى أيقظته الحوادث يقظةً هزّت كيانه وبدلت في حياته وأظهرت طبيعته الصلبة الجادة فتمرس بالخطوب ، وترك اللعب ونظر في أمر نفسه ، ولم يعد له همٌّ إلا تثبيت ملكه وحماية مملكته . وقد اقترف في سبيل ذلك جرائم كثيرة ، فكان له بعد ذلك الندم ، ففضى أواخر سنواته في عزلة وحسرة واستغفار ، وتوفى ذات ليلة دون أن يعرف بخبر وفاته إلا نفرٌ قليلٌ من رعيته ولم يعلن خبر وفاته إلا بعد أيام .

وكان أول ما عاناه الحكمُ حرب عمّيه سليمان وعبد الله ، وقد شقى هو بهما ، وشقيت البلاد بهما شقاء كبيراً ، لأنهما ربطا نفسيهما بنفر من الثائرين من الثغر الأعلى ، بل سعى أحدهما وهو عبد الله إلى تاليب شارلمان على الإسلام والمسلمين ، وذهب لمقابلته في « اكس لاشابل » ، وبالفعل أرسل شارلمان جيشاً دخل الأندلس ، ولكن أبا صفوان حاكم الثغر الأعلى رده على أعقابهِ سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٧ م . وبعد ذلك بقليل استسلم عمه سليمان أبو عبد الله فقد أصيب بالفالج فاستراحت البلاد من أذاه .

ولكن محاولة عبد الله وسليمان في الثغر الأعلى كشفت لرجال شارلمان ضعف الجبهة الإسلامية من هذه الناحية ، وحفزَه أهل شمال شبه الجزيرة من النصارى على القيام بحملةٍ أكثر جديةً ، وبالفعل سارت قواتٌ فرنجيةٌ في سنة ١٩٠ هـ /

٨٠٦ م نحو الأندلس ، فعبرت الجبال وحاصرت برشلونة ، وثبت القائد العربى « سعدون الرعينى » مدافعاً عن ذلك الثغر فى رباطة جأش ، وانتظر أن يصله المدد فلم يصله شىء ، لأن الحكم كان مشغولاً بعميه فى جنوب الأندلس . وأخيراً سقطت برشلونة فى يد الفرنجة ، وأنشأ شارلمان فيها ولاية ثغرية تسمى الثغر الإيبانى « لاماركا هيسبانيكا La Marca Hispanica » ، أصبحت من ذلك الحين شوكة فى جنب المسلمين ، لأنها تطورت مع الزمن حتى أصبحت كونتية قطلونية التى ستتحّد مع مملكة أرغون ، وتستطيع غزو الجانب الشرقى لمملكة الإسلام فى الأندلس فيما بعد .

ويذهب نَقَرٌ من المؤرخين بهذه المناسبة ، إلى أن الدولة العباسية حالفت الدولة الفرنجية ضد إمارة الأندلس . وهناك أخبارٌ غير موثوق فى صحتها عن مراسلات بين شارلمان وهارون الرشيد فى هذا المعنى ، ولدينا أخبار سفارات وهدايا متبادلة بينهما ، ولو أن مؤرخينا المشاركة لا يذكرون مرّةً واحدة ، وصول سفارة فرنجية إلى بلاط الرشيد . وليس لدينا شىءٌ يثبت ما تزعمه الروايات النصرانية ، من أن الرشيد أرسل إلى شارلمان مفاتيح بيت المقدس .

ولكن مؤرخى شارلمان يذكرون ورود سفارات إسلامية إلى بلاطه ، وبعضها يذكر هدايا أرسلها الرشيد إلى شارلمان ، منها خيلٌ ومنها الساعة الدقّاقة المشهورة . وقد درس الموضوع دراسة جيدة د. عبد العزيز الدورى وخرج منها أن هذه السفارات لم تكن رسمية ، وإنما قامت بها جماعات من تجار المسلمين من المغاربة فى الغالب ، حملوا الهدايا إلى بلاط شارلمان ، وزعموا أنها من خليفة المسلمين لكى حصلوا على تسهيلات وامتيازات تجارية ، وهذا لا يسمح لنا بأن نقول إن الرشيد حالف ملكاً نصرانياً على أمير الأندلس المسلم . لأنه ليس لدينا عليه أدنى دليل . ثم هو يتعارض معارضة تامة مع ما نعرف من خلق الرشيد والاتجاه العام للدولة العباسية ، وهو اتجاه إسلامى لا شك فيه .

القطور الاجتماعى فى الأندلس :

ومنذ أول ولاية الحكم نلاحظ ظاهرة لا نعرفها فى الكثير من بلاد الإسلام فى العصور الوسطى ، وهى أن طوائف الشعب فى العاصمة وكبار المدن غير راضية

عن الحالة ، وغير مقتنعة بنصيبها الذى قدره لها أهل الحكم . ففى العراق والشام ومصر مثلاً ، نجد أن الناس — ما بين مياسيرَ وأوساطَ وفقراءَ — منصرفون عن السياسة وأهلها ، لا يفكرون فى القيام عليهم ، إلا إذا بلغ الإجحاف حدًا يجاوز الاحتمال ، وفيما عدا ذلك فأهل الحكم فى سلطانهم ، وأهل المتاجر فى متاجرهم ، وأهل الزرع فى حقولهم . وهؤلاء جميعاً - تُجَاراً وَزُرَّاعاً وَصِنَاعاً - يتقاسمون نصيبهم من الشقاء والحرمان ، دون أن يفكروا فى التجمع لاتخاذ إجراء عامٍّ ضد الحكومة المركزية ، وإن كانت قلوبهم مثقلة بالغضب على الحاكمين أما فى الأندلس فنجد الناس على خلاف ذلك ، فإن الأندلسيين لا يسكتون على الأذى ولا يصبرون على ما لا يرضون وقتاً طويلاً . وكانت العادة فى العصور الوسطى أن يتحمل الناس مظالم الحكام فى صبر ، على اعتبار أن الحاكم الظالم عقاب من الله لا بد من احتمالته حتى يرفعه الله عن عباده . ولهذا السبب ندر أن قام شعب على حكامه لرفع الظلم ، ولكن أهل المدن فى الأندلس كانوا لا يكفون عن الثورة على أهل الحكم إذا زاد ظلمهم وفى كل مدينة أندلسية نجد جماعة تتحدث باسم الناس وتطالب الحاكم بالعدل وتتحداه ، وفى كل هيئة أو جماعة حرفية ، نجد رؤساء يتحدثون وينتقدون ، ومن هنا كان التحدى للحكم مستمراً ، وكان نقد أعمال الحكام وتتبعها والتشهير بهم يتردد فى كل مكان .

وعلى الرغم من ذلكاء بنى أمية وإدراكهم السياسى ، نلاحظ أن فهمهم لهذه الناحية فى شعبيهم كان بطيئاً وجزئياً على العموم ، واستمروا يحاولون الحكم بأساليب الشرق وهى القهر والعنف ، فطال النزاع بينهم وبين رعاياهم ، وخسر الجانبان كثيراً ، وفى النهاية كانت خسارة الأندلس الإسلامى عظيمة .

وقد كان الشعب الأندلسى فى طريقه إلى التكوُّن فى ذلك الحين ، وكانت العملية عسيرة تحتاج إلى وقت ، وكانت لا بد أن تلاقى صعوبات ، وتتغلب على عوائق . وقد مرت الشعوب الأوربية كلها فى مثل هذه الأدوار ، ولكن مؤرخينا لم يلاحظوا هذا التطور أبداً ولم يفهموه وأساءوا الحكم عليه .

وكان الشعب مُكوَّناً من أقلية عربية ، أو تعد نفسها عربية ، متمثلة فى البيت الحاكم ، وعدد من الأسرى فى العاصمة والمدن والأرياف . وجماعات منتسبة إليها وتتمسك بأصولها العربية كثيرة وقوية ، لأنها ترى فى ذلك شارة شرف وامتياز .

وقد سبق أن ذكرنا أن أولئك العرب كانوا في الحقيقة مولّدين ، فكلّ أمهاتهم إسبانيات من جليقية ، أو من بلاد البشكونس أو صقلييات ، وإذا تزوج أحدهم ابنة عربيّ من الأندلس ، وجدنا أن أم هذه العربية غير عربية ، أى أنها كانت في الحقيقة مولّدة ، وهذا لا يقدر في عروبة هذه البيوت ، لأن أفرادها كانوا يحسون أنهم عربّ ، ويتصرفون على أنهم عربّ خالص ، ويجيدون الفصحى ويحفظون أشعارها ويفخرون بأصولهم العربية ، وهذا هو المهم ، لأن الفصيل في هذه الموضوعات هو إحساس الإنسان الذي يحدد موقفه ويميل عليه تصرفاته ، فما دام الرجل يحس أنه عربيّ ويجد ذلك شرفاً ويربط نفسه بنسب عربيّ ، ويفخر بأمجاد العرب ويحسب نفسه من أمة العرب فهو عربيّ ، وإن كانت أمه غير عربية.

جماعة موالى بنى أمية :

ويدخل في هذه الطائفة جماعات الموالى ، فهؤلاء جميعاً كانوا يحسبون أنفسهم عرباً ، ويدعون أروماتٍ عربيةً يقتبسونها من أصول سادتهم . فهذا من لخم وذاك من جذام أو من أسد أو مضر ، وحتى الذين كانوا من أصول إسبانية منهم ، ادّعوا أصولاً عربيةً مع الزمن وهذا مهم جداً ، فما داموا يفخرون بأنهم عرب ، فهم عرب ، وإن كانت أمهاتهم إسبانيات .

وسواء صدقت هذه الأنساب أم لم تصدق ، فإنها كانت عاملاً أساسياً وفعالاً في حياة أولئك الموالى ، فهم جميعاً يدينون ويتصرفون على أنهم عرب ممتازون عن غيرهم ولهم حق السيادة والحكم .

وكان هؤلاء المولّدون ، وهم أبناء الإسبان الذين أسلموا كذلك وأبناء الزيجات العربية الإسبانية من عامة الناس ، وكانت أعداداً من دخل الأندلس من عامة العرب كبيرة ، وخاصةً من اليمانيين وأبناء القبائل المعدودة يمنيةً ، مثل « كلب وخوران ومذحج ومدلج وختعم » ، وهؤلاء كانوا في العادة يندرجون في غمار الناس في المدن والأرياف ، ويعملون بالزراعة والتجارة والصناعة ، ويتزوجون إسبانياتٍ ويخرج أولادهم أندلسيين من أصولٍ عربيةً ، ولكن طابع الأندلسية غلب عليهم . فهم أندلسيون وحسب . كذلك نشأ أولاد العرب بالشام شاميين وفي مصر مصريين وفي خراسان خراسانيين وهكذا .

ويدخل - في هؤلاء الموالي - القضاعيون الذين هاجروا إلى الأندلس ، وكانت أعدادهم غفيرة ، وقضاة ليست في الشام أو اليمن ، وإنما هي شعبٌ عربيٌّ قائمٌ بذاته ، كما يقول ابن حزم .

بقية تكوين شعب الأندلس :

وانضم إلى هؤلاء مع الزمن البربر الذين دخلوا الأندلس في جماعاتٍ كبيرةٍ واستعربوا واتخذوا أنساباً عربيةً ليرتفع شأنهم بين الناس ، فهؤلاء أيضاً نشأ أولادهم مولدين أندلسيين .

ومن هذه الجماعات كلها نشأت جماعات الشعب الأندلسي العربي الذي نعرفه ، وكان الإسباني النصراني إذا أسلم اتخذ اسماً عربياً وسمى « بالأسلمى » أو « المسلمى » ، ثم ينشأ أولادهم أندلسيين مستعربين ، ثم يصبحون مع الزمن أندلسيين عرباً ويندرجون في غمار كتلة الشعب الأندلسي العربي الذي كان يكون الغالبية العظمى من السكان .

وكان هناك المستعربون وهم الإسبان الذين ظلوا نصارى على دينهم ولكنهم استعربوا لساناً وأسلوب حياة ، وكانوا غالبية السكان أول الأمر ثم أخذت أعدادهم تتناقص مع الزمن .

هذه الأجناس كانت تتجاور وتتعايش وتتكامل ، فأما العرب ومن انضم إليهم من الموالي فقد احتفظوا لأنفسهم بمكان اجتماعي رفيع واختصوا أنفسهم بمراكز الرياسة والصدارة ، فأبغضتهم الطوائف الأخرى وأنكروا عليهم ما يدعونه من امتياز ، وفي نفس الوقت كان المولدون المستعربون يتقاربون بدافع اتحاد المصالح .

ولم يعطل اتحاد المولدين والمستعربين إلا رجال الدين في الناحيتين ، فقد كان القساوسة يؤلَّبون النصارى على المسلمين ، ويحضونهم على التمسك بنصرانيتهم ، في حين كان فقهاء المسلمين شديدي العصبية لدينهم ، يبذلون نشاطاً عظيماً في دعوة الناس إلى الإسلام وحثهم على التمسك بعقيدتهم .

وكانت غالبية الفقهاء فقراء ، فكانوا يقيمون في قرطبة في حى شقنדה جنوبى نهر الوادى الكبير حيث يسكن العمال وصغار التجار والطلاب ، وكانوا لهذا

منبئين بين الناس ، وكان لهم عليهم سلطانٌ بحكم عملهم ، ومن ناحية أخرى كانوا قرييين من باب « السدة » حيث مكاتب الدولة وكان ترددهم عليها كثيراً .

وكانت هناك أقليةً من الفقهاء ممن حَصَّلُوا علماً غزيراً ، ووصلوا إلى مراكز الصدارة في الدولة والمجتمع ، وهؤلاء كانوا يتمسكون بأصولهم العربية صحيحة كانت أم زائفةً ، وكانوا يدخلون في زمرة أهل الحكم والغنى والجاه . وكان الحكم ورجال دولته يعرفون هذه الحقائق كلها عن الشعب الذي يحكمونه ، ولكنهم كانوا يجهلون طبيعته وقدراته ، فلم يبالوا به ولم يقدروه حقَّ قدره ، وكان ذلك منهم خطأً جسيماً . وعندما شرع الحكم بن هشام يحكم ، أقبل على الحكم كأنه خليفةً شاب من خلفاء بنى أمية في أواخر أيامهم في المشرق ، فمضى يلهو ويتمتع بأطايب العيش ، ومن حوله حاشيةٌ متكبرةٌ متعاليةٌ ، وجندٌ خاصٌ قاسٍ عنيفٌ على الناس ، معظمه من الصقالبة وهم مماليك البيت الأندلسي الحاكم ، فلم تمض من ولاية الحكم شهورٌ ، حتى بدأ أهل بيته وكبار دولته يدبرون عليه ، لأنهم رأوا شاباً خليعاً ماجناً مستخفاً ، وانضم إليهم نفرٌ من الفقهاء . وفي ذاتِ مرّةٍ كان الحكم عائداً من صيدٍ له ، فتعرض له الجمهور وسبُّه وأهانته ، فلما عاد إلى القصر بدأ ينظر فيما آل إليه أمره ، ثم اكتشف مؤامرةً دَبَّرها عليه أهل بيته ، فأوقع بأفرادها في قسوة سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م . وقد ضجَّ الناس من قسوته وقسوة رجائه ، وبدأ الخوف يسود بيت الحاكم والرعية . فاستكثر الحكم من الجند المرتزقة الصقالبة . وكانت في أفرادها قسوةٌ وشدةٌ ، وكانوا لا يحسنون الكلام بالعربية ، فسماهم الناس « بالخرس » ، وسخط مياسير قرطبة وكبار أهلها وفقهائها على الحكم سخطاً شديداً ، وتوترتِ الجوّ وبدأ بوضوح أن « الحكم » يتعرَّضُ لمحنة قاسية .

فتنة طليطلة ويوم الخندق :

ولم يقتصر خوف الناس من الحكم على قرطبة ، بل امتد إلى طليطلة حيث كانت غالبية السكان مولّدين ونصارى ، وكانوا متمسكين بما كان لهم من سيادة أيامَ كان بلدهم عاصمة إسبانيا ، فكان لهم زعماءٌ كثيرون يتمسكون بحقوقهم القديمة ، وبدلاً من أن ينظر الحكم في هذه القضايا في هدوءٍ وتعلُّقٍ ويسعى إلى التفاهم مع الناس ليفهم الظروف التي تؤدّي بهم إلى القلق ، نجده يلجأ إلى العنف

والحيلة ، وينزل بأهل طليطلة مذبحه كبيرة ، قضت على الثورة مؤقتاً ، ولكنها أساءت إلى سمعة البيت الحاكم ، وأوجدت هُوةً سحيقة بين الحاكم والمحكومين ، وتسمى هذه المذبحة باسم « يوم الحفرة » لأن المقتولين فيها وضعوا في حفرة كبيرة خلف قصر الحكم وأهيل عليهم التراب ، والجدير بالذكر أن الذي دَبَّر هذه المذبحة البشعة كان أندلسياً من أصلٍ إسبانيّ يسمى « عمروس » وكان يتولى حكم طليطلة .

هيج الربض الأول سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م

والثاني سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م :

وعندما بلغت قرطبة أنباء يوم الحفرة ومذبحته ، أصاب أهلها هلع شديد ، تحوّل إلى غضب شديد ، فبدأت نذر الثورة تظهر في العاصمة ، وكثر الاحتكاك بين جند الأمير وجمهور الناس . ويبدو أن الحكم لم يفتن إلى خطورة ما حدث ، فمضى في طريقه مستخفاً بالناس ، غير عابئٍ بمشاعرهم ، فتحدوه تحدياً ظاهراً ، وشتموه على الطريق وصفقوا عليه بالأيدي ، فقبض على طائفة من زعمائهم وصلبهم سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٦ م . وسكنت الحال إلى حين . فلما كان الثالث عشر في رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م ، انفجرت مراحل الغضب الشعبي في الناحية الجنوبية لقرطبة وهي شقنّدة على الضفة الجنوبية من النهر وكانت فيها أحياء العمال والصناع والطلاب وصغار الفقهاء ، وقد انضم كبار الفقهاء إلى الناس في هذه الثورة في صورة ظاهرة من أمثال « يحيى بن يحيى الليثي وطالوت ابن عبد الجبار وعيسى بن دينار » ، وفوجئ الحكم في ذلك اليوم بجموع الثائرين تتقدم إلى قصره للإطاحة بعرشه .

ويعجب مؤرّخونا بما أبدى الحكم من ثبات في ذلك اليوم ، ولكننا نرى أن ذلك كان جمود قلب وبلادة إحساس فيه . فهؤلاء الثائرون لم يكونوا طامعين في ملكه ، بل كانوا يطلبون العدالة . وقد تصرّف الحكم معهم تصرفاً خسيساً إذ أطلق جنده على بيوتهم فأشعلوا فيها النيران ، وعرّضوا أولادهم وحريمهم للموت . فارتدّ الناس لإنقاذ أبنائهم فحصدهم الجند حصداً ، وانتهى اليوم بانتصار الحكم ، ولكن عواقب ذلك الانتصار كانت وخيمة جداً على مصير الأندلس ، فإن الحكم

أصدر أمره بطرد أهل الربض الجنوبي من الأندلس وكانوا الوفياً من أفضل الناس وأكثرهم شهامة ، وقد قاموا بأعمال تشهد بقوتهم في كل ناحية وصلوا إليها بعد طردهم وقد هاجر كثير منهم إلى الشمال واستقروا في أقاليم طليطلة وشمال غرب الأندلس ، وكانوا بعد ذلك من خيرة عناصره السكانية ، وذهب بعضهم الآخر إلى المغرب وأنشأوا « عدوة » الأندلسيين في فاس ، وتوزعت جماعات منهم في بلاد المغرب الأقصى الأخرى . واتجهت كتلة منهم إلى الإسكندرية بالبحر فاحتلتها وطردت عاملها ، ولم يتخلص منهم عامل مصر إلا بمشقة فذهبوا إلى كريت وانتزعوها من أيدي البيزنطيين وأنشأوا فيها دولة إسلامية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ظلت تحكمها حتى استعادها البيزنطيون منهم سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م .

انتهت ثورة الربض بنصر الحكم ، ولكنها كانت درساً بليغاً له ولمن جاء بعده ، فقد رأى بعينه قوة هذا الشعب الأندلسي واستعداده لإيقاف الحكام عند حدهم ، ومن هنا فسئري أن الأمراء والخلفاء سيكونون بعد ذلك أكثر مراعاة لمشاعر الناس وأحرص على ولائهم .

ولم يسعد الحكم بحياته بعد أن قضى على هيح الربض ، فقد مرض وتناولت به العلة وحلّ به الندم ، وجعل يتمنى لو أنه لم يتصرف مع أهل قرطبة على هذا النحو ، وتوفى في قصره ولكن أهل بيته أخفوا خبر موته فلم يعلن إلا في ٢٦ ذى الحجة ٢٠٦ هـ / ٢٢ ديسمبر ٨٢٢ م ، بعد أن تقرر الأمر من بعده لابنه عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط .

بداية الاستقرار :

عصر عبد الرحمن (الثاني) الأوسط : ٢٧ ذى الحجة ٢٠٦ - ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م .

الأمير محمد (الأول) : ٣ ربيع الآخر ٢٣٨ - ٢٨ صفر ٢٧٣ هـ / ٨٥٢ - ٨٨٦ .

المنذر : صفر ٢٧٣ - منتصف صفر ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ - ٨٨٨ م .

عبد الله بن محمد : ٢٧٥ - ٣٠٠ هـ / ٨٨٨ - ٩١٢ م .

عبد الرحمن (الثالث) : الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ / ٩١٢ - ٩٦١ م .

عبد الرحمن الأوسط : كان عبد الرحمن بن الحكم مؤملاً بطبعه لإزالة الآثار المحزنة التي خلفتها إمارة أبيه ، فقد كان هادئ الطبع لين الجانب ، وكان ألوفاً حسن العشرة يحبه الناس ويجدون متعة في الجلوس معه والحديث والتبسط معه في منادمته ، وكان محباً للحياة متقرباً إلى الناس ، كما أنه لم يقل ذكاءً عن سلفيه ، فقد كان يدرك كل شيء على حقيقته ، ولكنه كثيراً ما كان يتصنع عدم المعرفة ويُغضى عن أخطاء الآخرين ، فزاد ذلك في معرفته بالناس وقربه إلى قلوبهم فأحبوه وسعدوا به وأمّنوا إليه . ولم يكن فيه غدرٌ ولا قسوةٌ ، ولكن كان فيه حزمٌ وقدرةٌ على اتخاذ القرار المناسب ، وكثيراً ما كان يدع الأمور تجري وهو يرقبها دون أن يتخذ القرار إلا بعد وقت طويل ، ويبدو أن ذلك كان راجعاً إلى ميل منه إلى الدعة وإيثار للراحة ما تيسر له ذلك . وقد تولى في الحادية والثلاثين من عمره ، وحكم ثلاثين سنة استطاع خلالها أن يحقق الكثير وتوفى عن اثنتين وستين سنة ، وأمه جاريةٌ جليقيةٌ اسمها « حلاوة » .

ولم تكن الفتنة الداخلية لتهمه كثيراً ، فكان ينتظر حتى تهدأ من نفسها أو حتى يهدئها بأقل مجهود ، كما فعل مع فتنة المضريين واليمنيين التي استمرت سبع سنوات في كورة تدمير ، وهي التي سميت فيما بعد مرسية في شرق الأندلس ، وكانت تدمير من الكور المجنّدة ، وكان معظم جندها من جند مصر وغالبيتهم من اليمن ، ولكن المضريين فيها كانوا يحاولون السيطرة على اليمنية - ومن هنا كانت الفتنة - وكان يرسل إليهم الجيوش بين الحين والحين ، فلما تفاقم أمرهم ، أرسل إليهم قائده « يحيى بن خلف » في جيش كبير أوقع بهم قرب « لورقة » ، فأخذت فتنتهم في الخمود وانتهت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م . وكذلك كان موقفه من أهل البيرة الذين أقبلوا إلى قرطبة للشكوى من ظلم الأسقف والى النصارى هناك ، فقد انتظر أن يهدأوا ، فلما لم يسمعوا لنصحه سلط عليهم الجند .

وكان عبد الرحمن شديد الاهتمام بحماية حدوده الشمالية ، إذ أن نشاط العدوان على أراضي المسلمين تزايد على إثر ولاية « لويس التقى » عرش الفرنجة ، وهو من كبار ملوك فرنسا ، وكانت له أطماعٌ واسعةٌ في إقليم قطلونية ، وقد عرف عبد الرحمن كيف يكسب صداقة البشكونس ضد الفرنجة ، فوقفوا إلى جانبه ، واستطاع أن يردّ غزوةً فرنجيةً على ذلك الإقليم في سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م .

كذلك نشط ألفونسو الثانى ملك جليقية وأشتريس فى الغارة على أراضى المسلمين ، واستولى حيناً على مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط ، فرده عنها القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » ، وألزم ألفونسو بدفع الجزية ، بعد معركة حامية فى سهل يسمّى « فج جرنيق » فى إقليم ألبة ، وقد قتل فى هذه المعركة عددٌ كبيرٌ من جند العدو ، ونهبت ذخائره الكثيرة وعم التخريب . وكانت هذه آخر غزوة قام بها هذا القائد المظفر الذى يعد من أكبر القادة العسكريين الذين ظهروا فى الأندلس ، فقد استمر فى ميادين القتال مدافعاً عن الأندلس فوق الثلاثين سنة ، أبدى خلالها من القدرة العسكرية والإخلاص للأندلس ، ما وضع تقليداً جليلاً سيتبعه قوادُّ أندلسيون كثيرون من بعده ، وتولى قيادة جيوش الإمارة بعده أمير من البيت الأموى ، وهو « أمية بن معاوية بن هشام » ، وقد استطاع أمية أن يواجه ثورات كثيرة فى نواح شتّى من نواحي الأندلس ، من بينها حملة له على اليمانية فى إقليم تدمير ، وكان رئيس من رؤسائهم قد عاد إلى التمرد ، ودعا لبنى العباس ، وأخيراً تمكّن أمية بن معاوية بن هشام من الإيقاع به فى وقعة حاسمة بالقرب من لورقة بعد ذلك بستتين .

ولكنّ همّة عبد الرحمن تجلّت فى زيادته عن حدود بلاده وموالاة الغزوات فى البة والقلاع وأراضى البشكونس وإقليم قطلونية ، وكان هو يقود بنفسه الغزوات فى معظم الأحيان . وفى عام ٢٢٨هـ / ٨٤٣ م أنزل هزيمة قاصمة بقوات إمارة نبرة ، وفى نفس السنة أيضاً توفى ألفونسو الثانى الملقب « بالكاستو » أى النقى ، ملك جليقية وأشتريس بعد ٥١ سنة من الحكم ومناجزة المسلمين ، وخلفه ابنه « راميرو الأول » أو « ردمير » .

غزوات النورمان :

وفى أيام عبد الرحمن الأوسط ظهر خطر « الأردمانيين » وهى صيغة الجمع من لفظ أردمانى أى نورمانى ، وهم أهل الشمال والمراد بهم سكان اسكنديناوة ودانيماركة ، وكانوا يَمرون إذ ذاك فى عصر بطولتهم ، وكانوا يغيرون على شواطئ أوروبا الغربية بأساطيل من سفن صغار ذات أشرعة سوداء ، وكانت تدخل مصبات الأنهار وترسو داخل البلاد وتُغيّر على المدن وتنهب ما تعثر عليه ،

وتوقد النيران لتثيير الخوف ، ثم تهرب بسرعة وقد اشتهروا باسم « الفايكنجز Vikings » ، وبسبب استعمالهم للنار سماهم العرب بالمجوس .

وفي أيام شارلمان احتل النورمان الساحل الشمالى الغربى لفرنسا ، وكان يسمّى باسم « فريزيا » ، وأقاموا فيه ، وأنشأوا فيما بعد دولة فيه وسمى الإقليم باسمهم « نورمانديا » أو « نورماندى » ، وأبناء هؤلاء النورمان ، هم الذين فتحوا انجلترا بقيادة وليم الفاتح سنة ١٠٦٦ م .

بدأت سفن النورمان تجوس بحار الأندلس الغربية ابتداء من سنة ٢٢٩ هـ / ٨٤٣ م وكان أول ظهورها قرب شاطئ الأشبونة في ذلك العام . فكتب بأمرهم واليهما « وهب الله بن حزم » إلى الأمير عبد الرحمن يقول: إن أربعا من سفنهم الكبيرة ذات الأشعة السود ظهرت في البحر ، ومع كل سفينة منها مركب صغير ، فكتب الأمير إلى عمال السواحل بالتحفظ والاستعداد واليقظة . وسارت سفنهم إلى الجنوب ، فأغارت على قادش وأوغلت قواتهم داخل البلاد حتى وصلت شذونة ونهبت كل ما في طريقها ، ثم عاد النورمان إلى سفنهم ، وساروا بحذاء الساحل حتى مصب الوادى الكبير فاستولوا على جزيرة « قبطيل » في مدخله ، ثم دخلت السفن النهر وصعدت فيه حتى بلغت إشبيلية ونهبها النورمان ، وأحرقوا الكثير من ديارها ، بل أحرقوا المسجد الجامع . وبلغ الأمر الأمير عبد الرحمن فنهض للأمر بما هو أهله ، فأرسل القوات إلى الحدود الغربية وواجه النورمان في شجاعة وحزم وتولى حربهم من قواد الإمارة « عبد الله بن كليب وعبد الرحمن بن رستم » فأوقع المسلمون بالنورمان هزيمة كبرى عند طليطلة شمال إشبيلية سنة ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ م .

وقد أغارت سفن النورمان على الأندلس بعد ذلك مرارا ، ولكنها كانت ترد على أعقابها بخسائر فادحة في كل مرة . وكانت أطول غاراتهم في الأندلس ، هى غارة إشبيلية ٤٢ يوما ، ثم أغاروا على لبلبة ثم على الأشبونة وعادوا فيما بقى من مراكبهم .

نشأة الأسطول :

كان من نتيجة الغزو النورمانى أن تنبه عبد الرحمن إلى أهمية الأسطول فبدأ في إنشائه إنشاءً محكماً واتخذ له دور الصناعة والقواعد في الأشبونة وإشبيلية

وولبة والمرية وبلنسية ومالقة ، ولم تنقض سنوات حتى كان للأندلس أسطولان قويان أحدهما في المحيط الأطلسي ومركزه الأشبونة ، والثاني في البحر المتوسط وقاعدته مالقة ، ومنذ منتصف القرن التاسع الميلادي يظهر الأندلس كقوة بحرية كبرى ، وتبدأ أهمية البحرية الأندلسية كعماد لقوة إمارة قرطبة .

وكانت أولى ثمرات قيام ذلك الأسطول ، فتح الجزائر الشرقية المعروفة بالبليار سنة ٢٣٤ هـ / ٨٤٨ م وضمها إلى الأندلس ، ومن ذلك الحين تصبح جزائر البليار الكبرى الثلاث « ميورقة ومنورقة ويابسة » من ولايات الإمارة الأندلسية . وقد أنشئت ولاية الجزائر الشرقية سنة ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م .

بعض المتعصبين من رهبان النصارى يحاولون إثارة فتنة دينية في الأندلس :

ظهرت في أيام عبد الرحمن كذلك فتنة تعصب نصرانية ، أثارها نفر من الرهبان ، إذ كانوا يؤكدون لاتباعهم قبل ذلك أن الإسلام باطل ، وأن دولته لن تلبث حتى تزول ، ولكنهم رأوا أمر الإسلام يشد يوماً بعد يوم ، وإمارته تزدهر ، ومجتمعه يزداد رخاءً وثباتاً ، كما رأوا الثقافة العربية تغزو قلوب الشباب من أبناء دينهم ، فلا يكاد أحد منهم يحفل باللغة اللاتينية أو آدابها بينما ينفقون جهداً كبيراً في دراسة العربية ومطالعة آدابها ، بل برع الكثيرون منهم في كتابة العربية ، وقد شكوا ذلك قس متعصب يسمى «البارو القرطبي» في رسالة مشهورة ، فلما وجد أولئك الأخبار المتعصبون أبناء دينهم لا يابهنون لأمرهم ، بل يزدادون عنهم انصرافاً ويدخل الكثيرون منهم في خدمة الإمارة القرطبية ويسلمون ويؤاخون المسلمين ويصلون إلى الرتب العالية في المجتمع والإدارة ، انفجرت مراحل حقدهم ، فإذا بهم يجاهرون بالعدوان للإسلام وإهانة مقدساته علناً أمام الناس ، وكان رجال الشرطة يقتادونهم إلى القضاء ، فيحاول هؤلاء استتابتهم دون جدوى ، فيحكمون عليهم بالإعدام ، وكان هذا هو غرضهم : أن يموتوا في صورة الشهداء حتى يستثيروا عواطف الناس . وقد كثر خروجهم على هذه الصورة ابتداء من سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م ، وظهرت من بينهم أسماء رهبان أصبحوا بعد ذلك قديسين في سجل الكنيسة ، من أمثال « يولوج والبارو وفلورا » وكلهم من

قرطبة ، وقد استعان الأمير عبد الرحمن بالصبر على هذه الأزمة ، وطلب إلى زعماء النصارى أن يعقدوا مجمعاً دينياً في قرطبة لينظر في أمر هذه المحنة بالعقل والحكمة . وبالفعل انعقد مؤتمر برئاسة « ريكا فريديو » مطران إشبيلية ، ومثل الأمير فيه « غومس بن أنطونيان » أحد كتّابه . وقد أصدر المجمع قراراً يستنكر فيه هذه الحركة الحمقاء ، وشيئاً فشيئاً هدأت هذه الفتنة وعاد الوثام بين النصارى والمسلمين بفضل هدوء عبد الرحمن وحسن نظرته إلى الأمور . وقد أسلم غومس ابن أنطونيان بعد ذلك وحسن إسلامه ، وأقبل على الاعتكاف في المسجد الجامع في قرطبة حيث لُقّب بحمامة المسجد .

وعلى طول أيام عبد الرحمن الأوسط كان الصراع مستمراً ومتزايداً على الحدود الشمالية للإمارة فيما يلي طليطلة شمالاً . ومما يدل على أن قوة الإمارات النصرانية كانت تتزايد أن أهل طليطلة كانوا إذا خرجوا عن طاعة الإمارة ، استنجدوا بنصارى الشمال فأنجدوهم . وكان معظم استنجداهم بملوك ليون . ولهذا كان عبد الرحمن يوالى الغزو بنفسه ويُرسل قُوَّادَهُ كُلَّ صيفٍ . وكانت الغارات تتجه أحياناً إلى نبرة وعاصمتها بنبلونة ، ومن ناحيتها تدخل إلى إقليم ألبة والقلاع وأحياناً إلى بلاد مملكة ليون .

وفاة عبد الرحمن الأوسط :

تُوِّفِيَ عبد الرحمن الأوسط في ٣ ربيع الآخر ٢٣٨هـ / ٢٣ سبتمبر ٨٥٢ م بعد حكم دام إحدى وثلاثين سنة ، تعتبر من أزهى فترات التاريخ الأندلسي بسبب ما ساد قرطبة وكبار المدن ومراكز العمران من هدوء وما تمتعت به البلاد من رخاء ورفاهية ، لأن عبد الرحمن ورجاله كانوا من أذكى رجال الدول الذين يؤمنون بأن رخاء الرعية أساس لثبات الحكم واستقرار أسس العدالة والنظام .

ويرجع جانب كبير من رخاء الأندلس في أيام عبد الرحمن إلى الفائدة الكبرى التي عادت على الإمارة من الاستفادة من ملكات رجال الأسر الموازية التي أشرنا إليها وهم الموالي ، وقد ظهر في أيام عبد الرحمن عدد كبير من أبناء هذه البيوت أمثال القائد « عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث » الذي أشرنا إليه والقائد « عيسى بن شهيد » ، « ويوسف بن يوسف بن بخت » ، و « حسان بن أبي عبدة »

« ومحمد بن عبد السلام بن بسيل » ، « وعبد الرحمن بن رستم » ، وكانوا من كبار المخلصين للإمارة ولواجبهم ، وقد رفعهم عبد الرحمن إلى مراتب الوزراء ، فكان له نحو عشرة وزراء في وقت واحد ، وقرر لهم أن يجتمعوا في بيت من بيوت قصر السدة عرف ببيت الوزارة ليتناقشوا في المهم من شئون الدولة ويرفعوا ما يرون من أمور الدولة إلى الأمير من كبار المسائل وكان الذي يعرض على الأمير هو الحاجب أى كبير الوزراء ، وأشهر من نعرف من رؤساء الوزراء هؤلاء عبد الرحمن بن رستم .

الوزارة في الأندلس :

ونظام الوزارة في الأندلس هذا من المبتكرات الكبرى في التنظيم السياسى الأندلسى . لأن البيت الأموى كان غنياً بالشخصيات ذات الكفاية التى قدمتها باستمرار البيوت الموازية التى ذكرناها .

ومنذ أيام عبد الرحمن الداخل لم يتجه البيت الأموى إلى إيجاد وظيفة الوزير بصورتها واختصاصاتها التى نعرفها عند العباسيين فى المشرق ، وإنما اعتمد الأمراء الأندلسيون على أفراد من هذه البيوت فى تسيير شئون الدولة دون اختصاص واحد منهم بلقب معين أو وظيفة معينة ، حتى قيادة الجيوش تولأها الأمراء وأتابوا عنهم فى أحيان كثيرة رجالاً حملوا لقب القائد ، ولكن لفترة الحملات فقط ، ولكن ظهور شخصياتٍ ممتازةٍ حقاً من أمثال عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث وعيسى بن شهيد جعل من الضرورى أن يختص أولئك الرجال بأعمال محددة والقباب معينة ، فنجد عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث يصبح قائد الجيوش بصورة مستمرة ، ويصبح عيسى بن شهيد قائداً أيضاً ، ثم نجد لقباً آخر يضاف إلى ابن مغيث وهو الحاجب ، وترتبط بوظيفة الحاجب كل الاختصاصات التى كانت للوزير فى المشرق ، وبالفعل تصبح الحجابة فى الأندلس هى الوزارة فى المشرق ، ويصبح الحاجب ثانى شخصية فى الدولة بعد الأمير ولكن الحاجب فى الأندلس كان رئيس وزراء فعلاً ، يرأس نحو عشرة وزراء ، ويعرض أعمالهم على الأمير ..

وقد وزعت الاختصاصات الإدارية بين رجال من أفراد هذه البيوت ، فهذا

للمال ويسمى « الخازن » وذلك للأمن ويسمى « صاحب الشرطة » ، وذلك للمنشآت ويسمى « صاحب الأشغال » ، ثم نجد لقب الوزير يعطى لهؤلاء على أنه لقب تشريف أو درجة وظيفية في أول الأمر ، ثم نجده بعد ذلك مرتبطاً باختصاص معين ، فنجد الوزير عيسى بن شهيد يقود الصوائف ويسمى « بالوزير القائد » ويوسف بن يوسف بن بخت يتولى شئون المال ويسمى « بالوزير الخازن » ، ومحمد بن السليم يتولى الموارث ويسمى « بالوزير صاحب الموارث » وهكذا .. ومن أيام عبد الرحمن الأوسط نجد الوزير في الأندلس له معنى الوزير في أيامنا واختصاصاته ومستوليياته ، ونجد الحاجب يصبح رئيس الوزراء ، فهو الوزير الكبير ، وهو الذى يلقي الأمير كل يوم ويناقشه في شتى المسائل ، ويجتمع كل يوم مع أصحابه الوزراء في دار خاصة عرفت باسم « بيت الوزارة » ، وفي هذا البيت يجلس الوزراء على ترتيب معين في هيئة دائرة ، لكل واحد منهم وسادة يجلس عليها ، ووسادة الحاجب أعلى من بقية الوسائد ، ونجد لكل واحد من الوزراء ديوانه وكتابه (أى سكرتاريوه) ، والمسائل تدرس وتتخذ فيها القرارات ، ثم يأخذها الحاجب إلى الأمير ويعرضها عليه ، فما يوافق عليه يدخل ديوان الأمير لتحرر له الصيغة الديوانية أو القانونية الملائمة ثم يقدمها إلى الأمير ، الوزير صاحب العرض لتختم بخاتم الأمير ثم بخاتم الدولة وتصدر على النحو الذى تصدر به المراسيم اليوم وتكون سارية المفعول من يوم صدورها .

وقد تعددت وظائف الوزارة ، فنسمع مثلاً « بوزير الخيل » ، وهو الوزير المكلف بإعداد الخيل اللازمة لجيوش الدولة والعناية بها وبما تحتاج إليه من سرج ولجم ومرام وما إلى ذلك . وهناك « وزير الأعنة » ، ومهمته تقديم الخيل اللازمة لكل حملة مع فرسانها ، وإعداد الفرسان بكل ما يلزمهم ، وهناك وزراء بلا تخصص معين ، وهم أشبه بوزراء الدولة ومكاتبهم في القصر ، ليكلف الأمير منهم من يشاء بما يشاء .

وهؤلاء الوزراء جميعهم لهم الحق في لقاء الأمير والحديث معه ، وهم حاشية الأمير ومنهم أيضاً ندمائهم . وكانت عناية الأمير تمتد إلى أولادهم ، فإذا مات الوزير أو تعطل عن العمل ، حل محله ابنه ، وفي أحيان كثيرة لا يكون الابن ذا كفاية تؤهله للوظيفة فيعين له الأمير من يعاونه في العمل حتى يتقنه ، وذلك حرصاً من الأمراء

على أن تكون الأمور دائماً في أيدي هذه البيوت المخلصة التي تشبه أسر النبلاء التي كانت تحيط بملوك الغرب .

وكان أهل هذه البيوت أولاً مقصوراً على موالى بنى أمية وأولادهم وما تفرع عنهم ، ثم دخلت عليهم أسر قريتها الأمراء ، وكان منهم العرب والمؤدنون والمستعربون أحياناً ، وكان الكثيرون منهم من البربر ، وجدير بالذكر أن الأندلسيين من الأصول البربرية كانوا لا يَقْلُونُ كفايةً عن الأندلسيين من الأصول العربية أو أهل البلاد .

وكان الأمراء يُقِيلون الوزراء ، وعندما يقال الوزير ترفع وسادته من بيت الوزارة ، وليس من الضروري أن يحل محله وزير آخر ، وقد ينقل الوزير من وزارة إلى أخرى ، وقد يعطى لقب الوزير لموظف كبير مثل حاجب المدينة أى محافظ العاصمة فيسمى الوزير صاحب المدينة وتوضع له وسادة في بيت الوزارة والوسادة هي المقعد وقد يراد بها ما يسمى بالفوتى .

وفي بعض الأحيان لا نجد حاجباً ، فيقوم بعمله الوزير صاحب العرض ، وهذا الأخير كان يعتبر من خاصة الأمير ، أى من أهل القصر ، أى من الحاشية .

الخطط :

وكانت الوظيفة الكبيرة تسمى في الأندلس « بالخطة » ، مثل خطة الوزارة أو خطة الخيل ، أو خطة الأعنة ، أو خطة الكتابة وهي تعادل ديوان دار الإنشاء في المشرق ، وخطة المظالم ويراد بها النظر في الشكاوى المقدمة ضد رجال الدولة وتطبيق الأحكام على طبقات أهل المملكة ، وخطة القيادة ، وخطة الأشغال وخطة البحر .

خطة القضاء :

ومن الخطط الكبرى في الأندلس كانت خطة القضاء ، ويراد به « قضاء الجماعة » أو قضاء قرطبة ، وصاحبها كان يشبه وزير العدل ، فهو لا يتولى قضاء قرطبة فقط بل يختار قضاة المدن الأخرى والأقاليم ، وهو ينظر في شئون القضاة ويراقب أعمالهم وله أن يعزل منهم من يريد ويقترح تولية القضاء من يريد ، وكان قضاة العواصم الكبرى يعتبرون نواباً له يرجعون إليه في أحكامهم . وكان

« قاضى الجماعة » ثالث شخصية فى الأندلس بعد الأمير والحاجب ، ولهذا كان الأمراء يختارون قضاة الجماعة بعناية شديدة وتدقيق بالغ ، وكان أدنى خطأ ظاهر من القاضى يؤدى إلى عزله ، وكان لقاضى الجماعة سلطة على الأمير نفسه فى مسائل العدالة ، وكان من واجباته أن يحول دون ارتكاب رجال القصر وكبار الموظفين للمخالفات ، ولهذا كان القاضى رجلاً مردوب الجانب ، وكان الكثيرون يتحاشون هذه الوظيفة خوفاً من ألا يستطيعوا إقامة العدل على الأقوياء أو تحرجاً من خدمة أمراء لا يرضون عن كل تصرفاتهم .

الفقهاء المشاورون :

وكان هناك إلى جانب الأمير دائماً عدد كبير من الشيوخ ذوى العلم الواسع والخلق المتين والدين القويم يسمون بالفقهاء المشاورين ، أى الذين يستشيرهم الأمير فى كبار شئونه ، وخاصة الدينية منها . وقد ابتدع فقهاء المالكية هذه الخطة لأنهم فى محاولتهم اتباع آثار مالك بن أنس كانوا يرفضون تولى القضاء أو الوظائف العامة مكثفين بالانصراف إلى العلم والتدريس وإفتاء الناس فيما يعرض لهم من مشاكل . وكان هذا العزوف يرفع من مقامهم فى أعين الناس . ولم يكن عزوف هؤلاء الفقهاء عن تولى الوظائف تعبيراً عن عدم الرضا عن البيت الاموى لأنهم فى الحقيقة كانوا يؤيدونه كما رأينا ، ولكنهم كانوا يسرون فى هذا فى آثار مالك الذى لم يتول وظيفة ما وعاش للعلم والتعليم ، وقد أراد الأمراء أن يفيدوا من مكانة أولئك الفقهاء الكبار فى نفوس الناس فقربوهم إليهم ، واختاروا من بينهم عدداً من أوسعهم علماً وجعلوهم فقهاء مشاورين وكانوا يعتبرونهم أهل شورى لهم ، وكانت مراكزهم تعدل مراكز الوزراء .

يحيى بن يحيى الليثى :

وأول من نسمع عنه فى هذه الخطة يحيى بن يحيى الليثى ، وهو فقيه جليل درس دراسة واسعة فى المشرق ، وعاد إلى الأندلس أيام الأمير هشام فاحتل مكانة جليلة فى الدولة ورفض أن يتولى القضاء . وفى أيام الحكم الرضى نجده يشترك فى ثورة أهل قرطبة على الأمير ويهرب بعد القضاء على هذه الثورة ثم يعفو عنه الأمير

ويعود إلى مكانته . وفي أيام عبد الرحمن الأوسط ترتفع مكانة يحيى بن يحيى حتى يصبح من أكبر شخصيات الدولة ، ويصبح بالفعل وزيراً للعدل يولى القضاة ويعزلهم ، وهو الذى كان يوصى باختيار الفقهاء المشاورين إلى جواره ، فظهرت هذه الجماعة فى كامل صورتها . ولم يكن الفقهاء المشاورون هيئة تجتمع معا ، بل كان الأمير يستشيرهم فرادى فقد استدعاهم وقد يرسل القضايا إلى بيوتهم ليبدوا آراءهم فيها ، وكان يحيى بن يحيى الليثى كبير الفقهاء المشاورين فى أيام عبد الرحمن الأوسط ، وكان الأمير لا يقرر شيئاً فى شئون القضاة إلا برأيه ، وقد استبد بأمر القضاة حتى ثقل عليهم فلما مات قال ابن عذارى : « فى هذه السنة مات يحيى بن يحيى الليثى واستراح القضاة من همه » .

وقد تعاصر أيام عبد الرحمن الأوسط ثلاثة يعدون من أكابر الفقهاء فى تاريخ الأندلس كله هم : عبد الملك بن حبيب ويحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار ، وقد قيل فيهم إن عبد الملك عالم الأندلس وعيسى بن دينار فقيها ويحيى بن يحيى عاقلها .

وكان كبير المشاورين يسمى بشيخ القضاة أو « شيخ المسلمين » أو « رئيس البلد » وكلها تسميات تدل على كبر المكانة التى كان يتمتع بها الفقهاء المشاورون فى ذلك العصر ، ويلاحظ عليهم إلى آخر أيام عبد الرحمن الأوسط ، أنهم كانوا فقهاء ولم يكونوا أصوليين ، أى كانوا يعرضون فقه مالك فقط ولكن لا علم لهم بالحديث أو بأصول الفقه ، وإنما هم كانوا فى الأغلب فروعيين عمليين أى يعرفون من الفقه ما تمس إليه حاجة المعاملات الجارية ، وحتى فى هذا لم يكن لديهم من العلم إلا ما قاله مالك بن أنس . وسيظل مستوى العلم بالفقه فى الأندلس على هذا المستوى الرفيع حتى عصر الأمير « محمد بن عبد الرحمن » عندما يعود إلى الأندلس فقيهان أصوليان من أعلم الناس بالحديث الشريف ومناهج استخراج الأحكام من الأصول وهما : « بقى بن مخلد ومحمد بن وضاح » ، وهما من مدرسة الأصوليين وكبار المحدثين الذين ظهروا فى المشرق فى القرن الثالث الهجرى ويمثلهم هناك « يحيى بن معين وأحمد بن حنبل » ، وعلى أيدي فقهاء من مستواهم وهذا الجيل سيدخل الفقه فى الشرق والغرب على السواء فى عصر جديد من عصوره وستبدأ سلسلة أجلاء الفقهاء المتقين المعروفين بالحفاظ .

الشخصيات الحضارية - زرياب :

يعدّ زرياب من الشخصيات التي نستطيع أن نسميها شخصيات حضارية . ويراد بالشخصيات الحضارية أولئك الأفاضل الذين يتميزون بخصال وخصائص شخصية وعلمية أو فنية يكون لها أثر في تطوير الحضارة ومستواها في عصورهم وكان عبد الرحمن الأوسط نفسه شخصية حضارية فكان أميراً قادراً مجرباً حسن الحكم على الأمور ، ثم إنه كان عالماً وشاعراً ، وذا ذوق في كل ما يتصل بشئون الحياة من مسكن ومأكل وملبس . وأول الشخصيات الحضارية التي سنتحدث عنها هنا ، هي شخصية على بن نافع الموسيقى المعروف بزرياب .

وكان زرياب في أول أمره تلميذاً لإسحاق الموصلي موسيقى هارون الرشيد ، ويقال إنه أبدى من البراعة ما لفت إليه نظر الرشيد ، فشعر إسحاق الموصلي بالغيرة من تلميذه النابه فهدده بالقضاء عليه ، فخرج من بغداد ووصل إلى القيروان ، وهناك اكتسب لقب زرياب ، وهو طائرٌ أسود ، وهناك ظهر أمره كموسيقى ممتاز ، وانتشر صيته حتى بلغ الأندلس ، فاستقدمه عبد الرحمن الأوسط ، فوفد إلى قرطبة واستقبله الأمير استقبالاً حفيماً ورتب له راتباً كبيراً وهيئاً له الوسائل ليظهر فنه .

من أول الأمر أظهر على بن نافع أنه موسيقى فوق المستوى ، فأنشأ معهداً للموسيقى يتعلم فيه الشبان والشابات ، وكان يهتم بتربية الصوت وتوسيع مداه ، ويلزم التلاميذ بالقيام بتمارين وتدريبات عسيرة لكي يخرج الصوت من القفص الصدري كله ، لا من الحنجرة فحسب كما يفعل الكثيرون من المغنين . والغرض من ذلك أن تستخدم إمكانات المغنى الصوتية استخداماً كاملاً ، فتتسع قدرته للتعبير الغنائى عن المعانى والأحاسيس .

وقد ابتكر زرياب طريقة لكتابة الموسيقى ، ومن المؤسف أننا لم نعرف إلى الآن كيف كان زرياب يكتب موسيقاه ، ثم أدخل تعديلاً جوهرياً على العود ، وهو أداة الموسيقى الرئيسية في ذلك العصر ، فأضاف إليه وترّاً خامساً وأصلح الدفوف والمزامير وأحكم صنعها ، واخترع الفرق الموسيقية التي تجمع بين العازفين والمنشدين ، وكان يلحن القطعة الموسيقية تلحيناً كاملاً يجمع به الإنشاد الجماعى

والفردى والعزف . وهو أول من أنشأ في الأندلس المسرح الصغير الذى تجلس عليه الفرقة الموسيقية ، وكان ذلك المسرح يسمى بالستارة .

وكان غناء أهل الأندلس إلى ذلك الحين غناءً عربياً بسيطاً هو الحداء ، فأدخل زرياب موسيقى عالية عرفت باسم « الزريابية » ، وأصبح الحداء أو الحدو هو الغناء الشعبى فى حين أن الموسيقى الزريابية أصبحت الموسيقى الكلاسيكية الراقية فى الأندلس .

وكان زرياب يعمل بنظام تام وهيئة جليية ، فكان يخصص صدر النهار للدرس والتدريس ، وبعد الظهر للقراءة والاطلاع وفى الليل يتوجه إلى القصر ، وكان سراة الناس يرسلون إليه بجوارهم ليعلمهم ، وقد أخرج جيلاً من المغنيات الممتازات ، اشتهر أمرهن فى العالم الإسلامى كله مثل « قلم وعلم وشفاء » . وبلغ من إعجاب عبد الرحمن الأوسط به أن أمر ذات مرة بأن يدفعوا له ٣٠,٠٠٠ دينار مكافأة له على لحن ، فرفض خزنة الأمير إعطائه المبلغ على اعتبار أن ذلك تضييع لأموال المسلمين ، فلم يستطع الأمير إرغامهم على الدفع ! .

ولم يقتصر أثر زرياب على الموسيقى بل إنه كان رغم سواد لونه يتولى كبار الوظائف والمسؤوليات ، وكان فيصل الأناقة الأندلسية فى عصره ، وهو الذى علم أهل الأندلس كيف يرتدون الصوف شتاء والقطن أو الكتان صيفاً ، وعدل فى هيئات الثياب فقصرها وضيق الأكمام وأعطاهها هيئة جميلة ، وعلم الأندلسيين كيف يقصون شعورهم . وهو الذى علم الأندلسيين تقصير الشعر فى الجانبين ، وإرساله وراء الأذن . وابتكر للنساء تصفيفات عرفت باسمه مثل تصفيفة الجبهة وهى إنزال الشعر على الجبين مع قصه فى موازاة الحواجب ، وتفنن فى العطور ، فابتعد عن العطور الثقيلة كالعنبر والأدهان ومال إلى عطور الزهور .

كذلك أدخل زرياب تعديلاً على المطبخ الأندلسى ، فأدخل كثيراً من الخضر كالهندباء والكمأة ، وأضاف أصنافاً كثيرة عرفت باسمه ، وعلم أهل الأندلس الأكل على الموائد واستعمال الملاعق والسكاكين بدل الأصابع ، وخرج بهم عن الأطعمة البدائية القديمة وهى العصائد والثرائد ، أى الألوان التى عرفها أهل المشرق .

وعلى الجملة كان زرياب شخصية حضارية ممتازة ، فقد أدخل تغييراً جوهرياً على المجتمع الأندلسى كله ، وساعد فى نقله من البداوة الى الحضارة ومن

الفوضى الى التنظيم المتحضر ، وكان إلى جانب ذلك شخصية محترمة ذا سميت ووقار ، ولم تؤثر عنه هفوة خلق أو سوء تصرف ، بل كان يتحامى الشراب ولا يتعاطاه .

وفي تاريخ الموسيقى العربية يحتل ذلك « الطائر الأسود » مكاناً جليلاً ، فقد كان من القلائل الذين أخلصوا للفن الموسيقى وجددوا فيه وحافظوا على السمة المحترمة للفنان ، ولم يسمحوا لأنفسهم أبداً بأن يهبطوا إلى مستوى عامة المُسلِّين والندماء ، فكان قليلاً التردد على القصر ، لا يحضر إلا لحفل موسيقى ، وكان لا يذهب بموسيقاه إلى بيوت الأغنياء ، وإنما يذهب إلى داره من يريد أن يستمتع بفنه ، وقد جمع مالاً عريضاً من تدريس الموسيقى وتخريج الشبان والشابات ، وكان الكثيرون ممن تخرجوا على يديه أعلاماً للفن لهم في المجتمع مكانة كبيرة . وقد توفي على بن نافع في ربيع الأول ٢٣٨ هـ / أغسطس ٨٥٢ م قبل وفاة عبد الرحمن الأوسط بأسابيع قلائل .

ولم يكن على بن نافع (زرياب) الشخصية الطريفة الوحيدة التي ازدان بها عصر عبد الرحمن الأوسط ، فقد ظهرت في أيامه جماعة من أجل الشخصيات في تاريخ الإسلام العام ، ويعد ظهور هذه الشخصيات الفريدة ، ثمرة من ثمار غراس بنى أمية الذين بلغ حكمهم نحو قرن من الزمان عندما توفي عبد الرحمن الأوسط .

عباس بن فرناس :

من هذه الشخصيات عباس بن فرناس ، وهو في الحقيقة من رجال عصر الحكم الربضي ويكنى أبا القاسم ، وكان فيلسوفاً رياضياً وشاعراً ، وهو من أهل « تاكرنا » في جنوب الأندلس من أصل بربري ، وكان ذا براعة في الكيمياء وإليه تُعزى طريقة خاصة في صناعة الزجاج من طحين الأحجار ، وقد صنع آلة تعرف « بالميقاته » لمعرفة الوقت تعتمد على الظل ، وأكبر مخترعاته محاولته الطيران ، فقد صنع لنفسه كساء من الريش ذي جناحين كبيرين يضع فيهما ذراعيه ، وقد قفز بذلك الرداء من أعلى تل قرب مدينة بلنسية « منت أجود » وهو تعريب لاسم إسباني Monte Agudo وطار بضعة أمتار ثم اختل توازنه وسقط ، ويرجع سبب سقوطه إلى أنه لم يظن لأهمية الذيل في طيران الطائر ، وكان من آثار

سقوطه أن انكسرت إحدى فقرات ظهره السفلى فلأزم الفراش شهوراً متطاوله
وسخر منه أهل عصره بشعر كثير .

وقد أقلع عباس بن فرناس عن محاولة الطيران بعد ذلك ، ولكن محاولته تعتبر
صفحة جميلة في تاريخ الحضارة العربية ، فهي أول محاولة عملية لإنسان في
الطيران ، وقد حكى اليونان أن رجلاً منهم يسمى « إيكاروس » حاول الطيران ولم
يوفق ، ومحاولة عباس بن فرناس هي الثانية من نوعها في تاريخ البشر قبل
العصور الحديثة .

وقد ظلت محاولة عباس بن فرناس للطيران عالقة بأذهان أهل بلنسية زمنأ
طويلاً وعاشت حتى بعد أيام المسلمين ، فتحولت محاولته إلى أسطورة ، بل إن
شخصيته لا تزال إلى يومنا هذا رمزاً على الفن والابتكار في نواحي بلنسية وباسم
القل الذي حاول الطيران منه ، يصدر أدباء بلنسية مجلة للشعر تسمى مونت
أجودو Monte Agudo ولكنه لم يقلع عن الاشتغال بالكيمياء ، وهى فرع غير
علمى من الكيمياء ، يرمى إلى تحويل المعادن إلى ذهب عن طريق الصهر فترات
طويلة . وقد اخترع عباس شيئاً شبيهاً بقلم الحبر وأراد أن يوفر على الكتاب مئونة
حمل الأقلام والمحابر أينما ساروا .

وإلى جانب ذلك كان عباس بن فرناس موسيقياً صانع الحان مجيداً للضرب
بالعود ، وقد أثارت اختراعاته وابتكاراته الريية في قلوب الفقهاء والعامه فاتهم
بالزندقة ولكن أحداً لم يأخذ عليه شيئاً ، فعاش حتى توفى في سن عالية في أيام
الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط .

يحيى بن حكم الجيانى (الغزال) :

ومن طرائف الشخصيات أيام الحكم وابنه عبد الرحمن ، الشاعر الفيلسوف
يحيى الغزال الجيانى ، وهو عربى من بكر بن وائل ، ولد في جيان وقد سمي
بالغزال لجمال هيئته وأناقته ، وكان شخصية بوهيمية يخلط الجد بالهزل ويأخذ
الدنيا ساخرأ لا يكاد يحفل لشيء ، وكان شاعراً مبدعاً وعقلاً جريئاً ، لا يكف عن
مهاجمة الفقهاء والتندر بنفاقهم وتظاهرهم بالنقش والعزوف عن الدنيا مع
غناهم وحرصهم على المال والحياة ، وقد تعقبوه في إصرار لكى يجدوا وسيلة

لاتهامه بالزندقة والقضاء عليه ، ولكنه كان أمهر منهم ، فهرب إلى المشرق وغاب عنهم زمناً ، ولقى أبا نواس وأنشده شعره فأعجب به أبو نواس ، وفي هذه الرحلة قال كلاماً كثيراً كان من الممكن أن يؤذيه ولكن أحداً لم يتلبس عليه بشيء ثابت ، فلما عاد إلى الأندلس لقي قبولاً من عبد الرحمن الأوسط وأصبح من ندمائه وأصحابه ، وقد أعجب عبد الرحمن بأدبه وظرفه وهياته فجعله سفيراً له لدى الملوك ، فأرسله في سفارة إلى الامبراطور « تيوفيلوس » امبراطور بيزنطة ، فذهب في رفقته صديق له يسمى « يحيى صاحب المنقلة » وكان رياضياً ، وقد كسب الغزال إعجاب أهل البلاط البيزنطي ، وأعجبت به سيدات القصر رغم أنه كان قد جاوز الستين من عمره ، وأنشد في بعضهن أشعاراً قام المترجمون بنقلها إلى اليونانية فلقيت إعجاب أهل القصر . وقد قضى هذا السفير في سفارته ثلاث سنوات عاد بعدها محملاً بالهدايا والذكريات . وحمل إلى عبد الرحمن رسالة من الامبراطور .

وقد كان نجاح الغزال في هذه السفارة حافزاً لعبد الرحمن على إرساله إلى ملك النورمان في السدانمارك لكي يتباحث معه في أمر أولئك الغزاة الذين يؤرقون أمن الأندلس ، فذهب مع صاحبه يحيى بالبحر أيضاً . وكانت رحلة شاقة اضطرتهم الأمواج خلالها إلى الرُّسُوِّ في إيرلندة ثم في انجلترا ، وأخيراً دخل مضائق بحر البلطيق ، ووصل إلى بلاط ملك النورمان بعد أن كابد أهوالاً أحسن تصويرها في شعره . وفي بلاط الملك أبدع الغزال أيماً إبداع واستظرفه الملك ، وكان يجب أن يستقدمه ويستمتع إليه في حديثه وفكاهاته بواسطة مترجم ، ولكن إعجاب الملكة به كان أعظم وكان اسمها « تود » ، وقال فيها شعراً كثيراً ، وطال مكوث الغزال في بلاط النورمان لأن الناس أحبوه واستمسكوا به ولكنه كان لا بد أن يعود ، فعاد إلى قرطبة ليقص على الناس قصصاً طريفاً وليحدثهم بما كان بينه وبين الملكة تود ، وبطبيعة الحال لم يكن أحد يأخذه مأخذ الجد الخالص ، وكان هذا من صالحه لأنهم لو أخذوه مأخذ الجد لأصابه أذى شديد على أيدي الفقهاء .

وقد عمر يحيى الغزال بعد ذلك عشرين سنة أخرى فمات وقد تجاوز الثمانين

سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م .

التحول الحضارى فى الأندلس فى عصر عبد الرحمن الأوسط :

وفى عهد عبد الرحمن بن الحكم انتقل الأندلس من بساطته الأولى إلى ترف الحضارة ، فأنشأ الناس القصور الجميلة وأثثوها بالأثاث الفاخر والرياش المستجلبة من الشرق ، ووفد الناس على الأندلس بطرائف الجواهر والآنية والرياش ، واستجلب الناس الجوارى الملعلمات من المشرق ، وسادت الأندلس كله موجة من الحضارة والترف ، وأخذت قرطبة طريقها لتصبح أجمل مدائن أوروبا على الإطلاق ، ومن أبرز ما ابتدعه الناس إذ ذاك « المنى » بضم الميم وهى جمع منية ، وهو البيت الريفى الذى تحيط به حديقة ، أى ما نسميه نحن الآن بالفيلأ ، وكان الرومان يسمونه بهذا الاسم وعنهم أخذناه . وقد انتشرت المنى شمال قرطبة وغربها ، وسكنها سراة الناس فى حى خاص يشبه الأحياء الأرسقراطية فى عصرنا هذا ، وكان بعض الأغنياء يتوسعون فى حدائق المنى حتى تصبح رياضاً ويسمى الروض « بالحوُر » وقد امتدت الأحوار إلى الشمال والغرب امتداداً كبيراً .

وفى هذه القصور عاش الأغنياء حياة كلها ترف وغنى وقام على خدمتهم خدم كثيرون بعضهم أوروبى وبعضهم شرقى ، وحرص أولئك الموسرون على أن تكون لكل منهم ستارته ، تغنى فيها مغنيات قادرات ، ولكن ذلك لا ينبغى أن ينسينا أن هذه كانت حياة الأقلية ، أما الأكرتية فى الأندلس فكانوا يعيشون فى رخاء نسبى لأن البلد كان غنياً وكان الناس مقبلين على العمل لأن أعداد الناس كانت قليلة ، وكانت الحكومة المركزية تشرف على أعمال الحكام عن طريق ديوان المظالم ، وكان مخصصاً بالنظر فى شكاوى الناس من أعمال رجال الدولة وتصرفاتهم ، وكان يتولاه دائماً رجل من كبار أهل الدولة ، له السلطة الكافية لمحاسبة كبار الحكام . ومن الطريف أن يحيى الغزال كان ممن طلبهم صاحب المظالم وكانت تهمة أنه فرَّق فى الناس القمح المخزون فى أهراء الدولة فى الأشبونة ، وكان قد عُين عاملاً عليها ، وكان المفروض أن هذا القمح مخصص للمجنود ، ولكن « الحكم » وجد أن الناس أولى به ، إذ نزلت بهم مجاعة ، وقد عُزل يحيى الغزال من وظيفته لهذا السبب وانصرف إلى حياة الشعر واللهو فى قرطبة بعد ذلك .

زيادة مسجد قرطبة الجامع :

وقد اهتم عبد الرحمن الأوسط بالمنشآت والمباني ، وأهم منشآته زيادة المسجد الجامع ، فأضاف إليه سبع بلاطات^(١) من ناحية الجنوب ، ونقل المحراب من موضعه إلى جدار الجزء الجديد .

وقد لاحظ المعمارى الذى قام بعمل الزيادة أن ارتفاع سقف الجامع لم يعد مناسباً لاتساعه ، ففكر فى طريقة يرفع بها هذا السقف ، وهده فكره إلى أن يقيم فوق الأعمدة أعمدة أخرى وأقواساً أخرى ، فكان من نتيجة ذلك تلك الأقواس المزدوجة التى تعدّ من بدائع العمارة الإسلامية . وقد زاد المعمارى فى جمال هذه الأقواس بأن بناها مدماك من الأجر وآخر من الحجارة فأصبح ازدواج لون العقود طابعاً يميز عمارة مسجد قرطبة على ما عندنا من مساجد الإسلام . وقد رفعت هذه الأقواس المقامة السقف إلى ارتفاع يقرب من ثمانية عشر متراً ، مما زاد فى بهاء المسجد ورحابة داخله ، وكان ذلك الجزء المسقوف من المسجد الذى يعرف « ببيت الصلاة » يكون جزءاً صغيراً من الصحن العام لأن بقية الصحن كانت مكشوفة يدور عليها السور ، وقد زرعت فيها أشجار النارج ، فسمى ذلك الجزء من الصحن « بهو النارج » ، وقد تناقش فقهاء قرطبة وقتاً طويلاً فيما إذا كان من الجائز أن تغرس الأشجار فى بهو الجامع ، وأقر الفقهاء ذلك رغم مخالفته لرأى مالك بن أنس .

فى بلاط عبد الرحمن الأوسط :

وقد قام على عمارة هذا الجزء « نصر » فتى الأمير عبد الرحمن أى مولاه المقرب إلى نفسه ، وكان نصر رجلاً كفواً ولكنه كبقية صقالبه القصور كان جامد القلب ، أنانياً قليل الإحساس بالحب الحقيقى ، وكان يتأمر مع طروب جارية الأمير عبد الرحمن المقربة إلى نفسه ، وكانت طروب جارية بشكسنية شديدة الطموح ، وكانت ترجو أن يصبح ولدها عبد الله أميراً بعد أبيه متخطية بذلك الأمير محمداً

(١) البلاطة فى مصطلح العمارة الإسلامية هى المسافة الواقعة بين أربعة أعمدة ، فإذا قلنا إن عبد الرحمن الأوسط زاد فى المسجد سبع بلاطات ، فمعنى ذلك أنه وسع المسجد ناحية الجنوب بقدر سبعة صفوف من الأعمدة .

كبير أبناء الأمير وولى عهده ، وقد بلغ بها الأمر أن دبرت قتل الأمير بالسُّم وقام نصر بإعداده ، ولكن بعضهم نبه الأمير إلى الخطر فطلب إلى نصر أن يشرب الشراب المسموم فلم يسعه إلا أن يفعل وأسرع نصر والسم في بطنه إلى سكنه وأرسل بطلب لـين الماعز ، إذ قيل له إنه يضيع أثر السم ، فلم يوجد حتى هلك . وقد فرح فيه الكثيرون ممن كان لا يكف عن أذاهم ، وارتاح منه القائد الحاجب عيسى بن شهيد وكان من المتمسكين بضرورة المحافظة على العرش للأمير محمد بن عبد الرحمن .

الشعر والموشح والزجل :

وما دنا قد تحدثنا عن يحيى بن الحكم الغزال ، فلنقف وقفة قصيرة عند الفكر الأندلسى الذى بدأ يستقل عن الفكر المشرقى ، ويظهر فى صورته الناطقة بشخصيته ابتداء من ذلك العصر ، واستمر فى تطوره فى أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن جاء بعده ، إلى أيام عبد الرحمن الناصر .

لم يكن هناك مظهر للفكر الأندلسى إلا فى الشعر ، ولم يكن المجال قد انفسح أمام النثر الفنى ليظهر ، ولم تر الأندلس ناثراً أصيلاً من طراز الجاحظ أو ابن المقفع أو عبد الحميد الكاتب . وقد نشأ الشعر الأندلسى محاكياً للشعر المشرقى ، وعندما ثبتت أقدام الإسلام فى الأندلس كان عصر الشعر العربى الإسلامى الخالص قد انقضى بذهاب بنى أمية . ذهبت أيام جرير والفرزدق والأخطل وذى الرمة ، وانعقد لواء الشعر للمحدثين أو الكلاسيكيين المحدثين من أمثال أبى نواس وبشار بن برد . وأبى تمام وابن الرومى وابن المعتز ، وهؤلاء الخمسة بالذات كان لهم أثر بعيد جداً فى تكوين مدرسة مماثلة فى فن الشعر الأندلسى ، فنجد عند كبار الشعراء فى عصر الأمراء ، من أمثال « ابن عبد ربه ومؤمن بن سعيد ويحيى بن حكم الغزال ومحمد بن يحيى القلفاض ، صوراً شعرية مقتبسة من شعر أولئك الفحول ، وأبو تمام بالذات كان له أثر عميق جداً عند شعراء الأندلس لرصانة شعره وجودة معانيه وديباجته العربية الخالصة ، ويلى أبا تمام فى ذلك ابن الرومى وابن المعتز ، فأما الأول فقد فتن الأندلسيون بسهولة شعره وسلامة نظمه وجمال الصور التى يأتى بها ، وأما الثانى فأعجبتهم فيه الصنعة والرقعة والحديث الكثير عن البساتين والرياض والزهور والربيع وما إلى ذلك من مظاهر الطبيعة .

وفي عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط نرى طلائع الشعر الشعبي الأندلسي وهو شعر يصاغ في عامية أهل الأندلس ، ولكنه يلتزم أوزان الشعر العربي وخاصة السهل الجارى منها كالرمل والرجز ، وقد عرف هذا الشعر بالزجل . والزجل الذى يقال فى كل بلاد العروبة ولد فى الأندلس فى الغالب ، ونحن نسمع عنه أول ما نسمع فى تلك البلاد .

وعامية أهل الأندلس خليط من العربية والبربرية والإيبيرية الرومانية ، فإن الأندلسى كان يقول : كِيروكاس دَلما « (أريد كأس ماء) ، «مى ألما حزين دا اليوم» (نفسى حزينه اليوم) ، «اشترت من السوكو سبانية بلانكا» (اشترت من السوق غطاء فراش أبيض) ، «ازداد فولانو ولد سمرلو وبنت شقريلا» ، (ولد لفلان ولد أسمر وبنت شقراء) وهكذا .

وهذه اللغة هى التى كان الناس جميعاً يتحدثون بها ويفهمونها فى الأندلس ، وهى كذلك كانت لغة الزجل الذى سيبلغ أوج ازدهاره فى عصر الطوائف على يد زجالين موهوبين أشهرهم ابن قزمان .

بعد ذلك ظهر الموشح ، والغالب أيضاً أنه ابتكار أندلسى ، فكانوا يأخذون «مركز»^(١) احدى الأغانى الشعبية باللغة الإسبانية الدارجة ، وينسجون على منواله أربعة أشطار أو خمسة تنتهى بذلك المركز الذى يسمى «خرجة» ، ثم أربعة أبيات أخرى عربية تنتهى بنفس الخرجة ، وهكذا :

السحر حق

وأنا به أشهد

أضل العشق

مهجتى ولا ينفد

وأين صدقو

من غريدة تنشد

(١) المركز هو بيت الشعر الذى يتكرر فى الزجل والموشح بعد نهاية كل فقرة شعرية ويسمى عندنا بالمذهب .

وإليك نموذجاً من الموشحات التي كانت تنشد في الأندلس منظومة على أساس غير عربي ونكتبها بإسبانية اليوم لكي تزداد وضوحاً :

Alba qérta Kon Bel Fogore

Cuando Viene lide Fugor

Una alba que Tiene Tan hermoso fulgor

Cuando viene pide amor .

وترجمته بالعربية :

فجر ضياء بالغ الجمال

عندما يطلع يبعث الحب

فجر له ضوء ساطع جميل

عندما يأتي طالباً للوصل

وهذه الخرجة الإسبانية التي تسمى المركز أيضاً تتكرر بلفظها في نهاية كل مقطع عربي مكون من ستة أشعار صغيرة كهذه ، وكانت العادة أن ينشد الأشعار الدينية منشد مفرد ، أما الخرجات أو المراكز فكانت تغنيها الجماعة مع المنشد أو المنشدة .

وقد انتقل الموشح إلى بلاد الإسلام كلها وأصبح نوعاً جارياً من الشعر ، يجمع بين العربية الفصيحة والعامية الدارجة ، وكان أول ظهوره على يد « مقدم ابن معاني القبري » الضرير الذي نشأ في أيام عبد الرحمن الأوسط .

ونعود إلى ذكر الشعر الفصيح فنقول : إن أكبر شعراء العصر الذي نتحدث عنه هم أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (١٠ رمضان ٢٤٦ - ١٨ جمادى الأولى ٣٢٨ هـ / ٢٩ نوفمبر ٨٦٠ - ٣ مارس ٩٤٠م) صاحب كتاب « العقد الفريد » وهو كتاب جامع شامل في الأدب العربي الجاهل والإسلامي ، وهو يصور لنا مفهوم العرب الأوائل للأدب ، وهو الأخذ من كل شيء بطرف ، أي ما نسميه اليوم بالثقافة العامة .

وكان ابن عبد ربه إلى جانب ثقافته الواسعة شاعراً أشبه بالرسمى للأمراء ، فهو يقول شعراً كثيراً ، ولكنه شعر مقصور معظمه على المديح والتهاني والفخر والمراثي وما إلى ذلك ، ولكن الرجل كان عاقلاً متعاوناً عرف كيف يحتفظ بمكان ممتاز في المجتمع الأندلسي ، وقد ظل طول حياته شاعر الأندلس الأول حتى توفي أوائل أيام عبد الرحمن الناصر عن سن عالية .

ومن أهم ما يذكر له من الشعر أرجوزة في تاريخ أمراء الأندلس أدرجها في كتاب العقد الفريد ، وقد ترجمت إلى الإسبانية نظراً لأهميتها التاريخية .

وعلى العكس من ذلك كان معاصره « مؤمن بن سعيد » ، فقد كان رجلاً متداخلاً كثير الوقوع في الناس ، دائم الدعابة ، فقال الناس من أذاه شيء كثير ، وأذوه هم الآخرون كثيراً ، ولكن حياته غير السعيدة بخيرها وشرها ، بحلوها ومرها تصور لنا جوانب شتى من حياة الناس في الأندلس .

أما ثالث شعراء الأندلس الذي تحدثنا عنهم كتب الأدب الأندلسي في ذلك العصر ، فهو أبو بكر بن هذيل ، وكان شاعراً مجيداً يحسن أشعار الموشحات والوصفيات ، وقد شهد وهو صغير جنازة ابن عبد ربه فألَى على نفسه أن يبلغ شأوه ووصل إلى ما أراد بحسن دأبه وكان ضريراً .

وهؤلاء الثلاثة إلى جانب يحيى بن حكم الغزال يصورون لنا آخر ما وصل إليه الشعر في ذلك العصر ، وهم ليسوا أعظم شعراء الأندلس على أي حال ، لأن أعظم الشعراء هؤلاء سيظهرون في أيام عبد الرحمن الناصر وما بعده أي عندما يصل الأندلس إلى الاستقرار الكامل وتصل حضارته إلى أقصى ما وصلت إليه من نضج في عصر الطوائف ، وما تلاه من عصور الصراع الحاسم على مصير الأندلس .

ونلاحظ على الجملة أن الإمارة الأموية القرطبية قامت على رجال ذوى ملكات وقدرات لكل منهم ناحية اختصاصه وشخصيته الواضحة ، والدولة المركزية تعترف لكل رجل من هؤلاء بمكانته وتعطيه حقه وتفصح له المجال ليفيد بملكاته وليستفيد منها ، وهذه الظاهرة سمة من سمات القوة في الدول ، لأن الدول تبني على الرجال ، أما القول بأن « الدول تبني على المال وبالمال يصطنع الرجال »

فمذهب خاطئ يدل على ضعف ، وقد أخذ بمبدأ الرجال بنو أمية الشرقيون في صدر دولتهم ثم بنو أمية الأندلسيون هؤلاء ، وأخذ بمبدأ المال العباسيون ، وكان هذا من أهم أسباب ضعف دولتهم .

وناحية الضعف في سياسة الرجال التي اتبعها الأمويون الأندلسيون أن هؤلاء كانوا بطبعهم قوماً ذوى خيلاء وزهو وغرور بأنفسهم ، فأسرفوا في الاعتداد بأنفسهم ، فما من رجل تغضبه الدولة في شيء إلا ويشور في ناحيته ويسبب المتاعب كما سنرى في نهاية عصر الاستقرار هذا .

يضاف إلى ذلك أن الكثير من نواحي الأندلس كان لها شخصيتها المستقلة التي تعترف بها الدولة ، وتمنح أصحاب الأمر فيها درجة كبيرة أو صغيرة من الاستقلال الداخلي ، ومثال ذلك منطقة الثغر الأعلى ، وهي حوض نهر الإبرو وما يليه شمالاً إلى جبال ألبرت (البرانس) ، فهذه منطقة متاخمة للممالك والإمارات المسيحية في الشمال والشمال الغربي والشرقي ، وكانت تتولى أمورها أسر محلية ، تتمتع بامتيازات إقطاعية سلم بها الأمراء ، ومن هذه الأسر ما يرجع إلى أصول إسبانية محلية مثل « بنى قَسِي » المنحدرين من « فُرتونيو » حكام تلك المنطقة أيام الفتح العربي ، « وبنى هاشم » وهم عرب استقروا هناك ووصلوا إلى الرياسة ، وكانت لهم قواتهم العسكرية وامتيازاتهم الإقطاعية في نواحيهم . وكانت العلاقات بين هذه الأسر والبيت الأموي في تغير دائم بين الطاعة والعصيان ، ولكن رجالها كانوا على الجملة من أهل الطاعة ، وخاصة عندما قوى أمر إمارة قرطبة وثبتت أركانها في عصر عبد الرحمن الأوسط وما بعده .

كذلك منطقة طليطلة ، فقد كانت منطقة ثغرية يتمتع أهلها باستقلالها المحلي ، فكانت لطليطلة مشيختها التي تدير أمورها بالاشتراك مع عمال الإمارة .

وكانت ثورات أهل طليطلة على الإمارة كثيرة ، ولكن الأمير محمداً ، انتهج - كما سنرى - سياسة جديدة في تأمين طليطلة والثغر الأوسط من عدوان نصارى الشمال وتوثيق علاقتها بقرطبة وتعزيز سلطان الإمارة فيها .

الأمير محمد بن عبد الرحمن (٤ ربيع الآخر ٢٣٨ هـ / ٢٤
سبتمبر ٨٥٢ م - ٢٩ صفر ٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م) :

لم يكن الأمير محمد أكبر أبناء عبد الرحمن الأوسط ، ولكنه كان أصلحهم
للأمر برأى أبيه ورجال مملكته ، وقد رشحه عبد الرحمن لولاية العهد ، وأخذ
رجال الدولة بالالتفاف حوله . فلما توفى عبد الرحمن صار الأمر إليه دون مشقة .

وكان قد جاوز الثلاثين بقليل يوم تولى العرش ، وكان شاباً عاقلاً جداً بعيد
النظر هادئ الأعصاب ، حتى لنلاحظ عنده جموداً عاطفياً يذكرنا بما كان عليه
جده الأمير عبد الرحمن الداخل .

تولى محمد وحاجب الدولة « عيسى بن شهيد » فأقره على عمله ، وكان
لعيسى فضل كبير عليه ، وكان كذلك آخر وزراء أبيه ، وقد زاد في تنظيم الوزراء
وترتيب أعمالهم حتى أصبحوا وزراء يقاربون وزراء اليوم في اختصاص كل
وزير بفرع من فروع الإدارة . وبعد أن توفى عيسى بن شهيد ، تولى الحجابة
« عيسى بن الحسن بن أبي عبده » وكان وزيراً جليلاً رغم رثاءة هيئته ، ثم خلفه
« هاشم بن عبد العزيز » وكان رجلاً أرعن طائشاً شديد الأنانية ، وقد كان له أسوء
الأثر على الدولة وعلى الأمير ، بل إن رعونته كانت سبباً في قيام كثير من الثورات
والاضطرابات التي انتهت إلى عصر الفتنة الأولى الذي سنتحدث عنه .

ولقد واجهت الأمير محمداً لأول ولايته مشاكل محلية كثيرة في مختلف
النواحي فثار أهل طليطلة ، واتجه بنو قسى أصحاب الثغر الأعلى إلى الاستقلال
بناحياتهم ، وتحركت جماعات ثائرة في الغرب في إقليم « ماردة » . وإن من يقرأ
حوليات الأندلس أيام الأمير محمد ، ليتصور أن معظم النواحي خرجت على الإدارة
المركزية . ولكننا ينبغي أن نذكر أن هذه كانت الحال أيضاً في معظم ممالك أوروبا
النصرانية ، لأن طبيعة الأرض هناك تسهل الثورة على من أَرادها ، ثم إن الناس
الذين نشأوا في هذه البيئات الطبيعية الجبلية لا يميلون إلى الاستسلام
للحكومات المركزية ، وخاصة رؤساء الناس في تلك النواحي وهم أمراء الإقطاع ،
ولهذا فقد كانت الثورات والحروب الداخلية دائمة في هذه البلاد كما كانت دائمة
في الأندلس . المهم لدينا أن الأمير محمداً كان مدركاً لهذه الحقيقة وكان مستعداً
دائماً لحماية وحدة بلاده لا يكف عن الخروج في الحملات أو إرسال القواد
بالجيوش .

وقد لقي من أهل طليطلة عناءً شديداً ، لأن ما فعله معهم جده الحكم ، كان قد قضى على جانب كبير من الثقة بينهم وبين البيت الأموي ، لذلك كانت الحرب سجالاتاً بين أهل طليطلة وجيش قرطبة ، واستطاعت قوات الإمارة أن تحرز نصراً كبيراً عند وادي « سليط » في الجزء الجنوبي من كورة طليطلة سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م ووقع نفر من زعماء الثورة والمحرضين عليها في يد الأمير ، ثم انتهى الصراع بين الجانبين بنصر آخر لقوات الإمارة سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م خارج طليطلة نفسها ، وعلى أثر ذلك استكان البلد وصالح الأمير .

وأقام محمد في طليطلة ينظر في أمور أهلها ، فتبين له أنه لا بد من تحصين كورة طليطلة من الشمال بإنشاء خط من الحصون والاستحكامات يمتد بحذاء جبل « الشارات » حتى يصل إلى وادي « إبرو » ، فتقوم هذه الحصون بإيقاف أي تقدم للنصارى جنوباً ، ويشعر أهل طليطلة أنهم لم يعودوا بحاجة إلى مهاذنة النصارى أو محالفتهم . وبالفعل أنشأ خط الحصون هذا ، وكانت أول مراكزه مجريط (مدريد اليوم) في شمال شرقي طليطلة ، ثم « ظلمنكة » وقلعة هنارس ووادى الحجارة ومدينة سالم وقلعة أيوب ثم سرقسطة . وقد سمي هذا الخط كله بوادى الحجارة أي وادى الحصون وأهم حصونه مجريط ومدينة سالم ، وهذه الأخيرة كانت القاعدة العسكرية للإقليم الثغرى الأوسط الذي عرف بالثغر الأوسط . أما الثغر الشرقي فكان يسمى بالثغر الأيمن وهو منطقة وادي إبرو وعاصمته سرقسطة . وكان هناك ثغر أدنى في الغرب ، وهو استمرار للثغرين الأعلى والأوسط ، وأهم مراكزه « قورية وشتنترين » ثم « الأشبونة » ، وهي قاعدته في المحيط . وكانت هذه المناطق الثغرية الثلاثة مناطق حدود يحكمها حكام عسكريون بدل عمال الكور ، وكانت لها معاملة مالية خاصة ، فلم يكن أهلها يؤدون الأعشار وغيرها من الضرائب بنفس النسب التي كانت تجبى بها في بقية البلاد ، إذ كان يراعى أن أهل هذه النواحي ينفقون أموالاً كثيرة في الدفاع عن أراضيهم ، ثم إنهم كانوا في الغالب قومًا مسلمين ، يعاملون من جانب الحكومة برفق شديد . وقد جرت العادة في بلاد الإسلام ، وفي الأندلس خاصة ، بأن يفد إلى هذه الأقاليم المطوعة والعُباد والزُّماد والمرابطون ليرابطوا على حدود الإسلام حماية لدار الإسلام ، حسبةً لله والتماساً للثواب .

وعاد خطر الأردمانيين (النورمان) يهدد شواطئ الأندلس ، وكان المسلمون قد استعدوا لهم بالأساطيل ، فلم يستطيعوا هذه المرة أن يصيبوا من المسلمين ما كانوا يصيبونه فيما مضى ، فلم يجرؤوا على اقتحام الأشبونة أو إشبيلية ، فانقضوا على بلدة صغيرة هي « باجة » في البرتغال الحالية ، وهناك أوقعت بهم قوات الإمارة هزيمة كبيرة ، وبعد ذلك تحولت غزوات النورمان إلى ضربات سريعة على السواحل ، وامتدت حتى وصلت الساحل الشرقي لشبه الجزيرة ، ويئست تماماً من القدرة على القيام بعمل كبير في الأندلس الإسلامي ، فاتجهت إلى إسبانيا النصرانية وتمكنت من الدخول بسفنها في نهر الإبرو ، ووصلت إلى « بنبلونة » عاصمة نبره (نافار) ونهبته نهباً ذريعاً وأسرت ملكها « غرسيه » ولم يردوه إلا لقاء فدية كبيرة .

وتلك كانت آخر محاولة قام بها الأردمانيون ضد الأندلس ، إذ تبينوا أن شواطئه محروسة وأساطيله معدة ورجاله متنبهون ، ولم يعد أحد يسمع عن خطر الجوس على الأندلس بعد ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م .

كذلك قامت حروب كثيرة بين الأندلس ومملكة « نافار وليون » وقد كانتا لخوفهما من المسلمين قد اتحدتا وانضم إليهما أحياناً « موسى بن موسى بن قسى » ، صاحب الثغر الأعلى أي سرقسطة . وكان آل قسى في الأصل أسرة إسبانية نصرانية ، اعتنقت الإسلام ودخلت في طاعة المسلمين ، ولكن رجالها ظلوا يتمسكون باستقلالهم المحلي في كل منطقة الثغر الأعلى ، ويبدو أن هذا الاستقلال المحلي كان أمراً تحتته الضرورات الجغرافية والتاريخية . وقد قدر أمراء قرطبة هذه الظروف ، فكانوا يكتفون من أمراء الثغر الأعلى بطاعة اسمية وفي أحيان أخرى كانوا يحاولون كسر شوكتهم . وعلى أي حال فلم يكن من الممكن اتباع سياسة أخرى حيال أمراء ثغر بعيد كهذا ، يحيط به الأعداء من الشمال والشرق والغرب . وقد كان بنو قسى التجيبيون ثم بنو هاشم الطويل ، من أكبر أسباب استقرار الأحوال في الثغر الأعلى ، فقد قام على رأس هذين البيتين رجال محاربون أشداء ، استطاعوا الصمود للضغط النصراني ومصانعة جيرانهم من النصارى إذا اقتضى الأمر ذلك . وقد أدى ذلك إلى خلافات كثيرة بينهم وبين أمراء قرطبة ، ولكنهم تمكنوا من حماية ثغرهم وأهله ، وتأمينه حتى أيام عبد الرحمن الناصر

عندما تغيرت العلاقات بينهم وبين إمارة قرطبة التي تحولت إلى خلافة . ويرجع إلى رجال هذه البيوت الإقطاعية الفضل في تثبيت أركان الإسلام والثقافة العربية في ذلك الإقليم ، فإنه ظل بعيداً عن الثورات الكبرى على قرطبة ورجالها ، وكان من أكثر نواحي الأندلس عروبةً وإسلاماً .

وقد انتصر الأمير محمدٌ على مملكتي « نبرة وأشتريس » في كل حروبه معهما بفضل قادته من أمثال « عيسى بن الحسن بن أبى عبده » و« عباس القرشى » ثم أبناء الأمير محمدٍ : عبد الرحمن والحكم والمنذر وكانوا قادة موهوبين . وقد تمكنت الإمارة القرطبية من القضاء على أطماع « أردونيو الأول » ملك أشتريس وليون حتى توفي سنة ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م وخلفه أخوه « ألفونسو الثالث » الملقب بالكبير ، وهو من أعظم ملوك إسبانيا النصرانية . وفي أيامه نقلت عاصمة المملكة إلى مدينة ليون ، وأصبح اسمها مملكة ليون ، ومن أواخر أيام الأمير محمد نجد أن مملكة ليون تصبح منافساً خطراً للإمارة القرطبية .

ولم يمنع الأمير محمدًا من إيقاف مملكة ليون عند حدّها إلا كثرة الثورات عليه في بلاده . ولم تكن هذه الثورات ناتجة عن ضعف الحكومة أو إهمالها لواجبها بل سببها اتساع دولة بنى أمية ووعورة أرض البلاد ثم قلة العرب وسط الجموع الأخرى من المستعربين والمولدين . وكان الظاهرون من رجال كل ناحية لا يكفون عن معاداة الحكومة والاتجاه إلى الاستقلال ، وربما كان أسلم السياسات هو أن تسير إمارة قرطبة على نفس النظام الذي كانت تسير عليه ممالك أوروبا النصرانية في ذلك العصر ، وهو الاعتراف بأمراء الإقطاع في نواحيهم ، في مقابل خضوعهم الرسمي للدولة وأداء مال معين وتقديم قوات محاربة وقت الحاجة . ولكن مفهوم الدولة عند بنى أمية ورجالهم لم يكن يقبل هذا الوضع ، ثم إن وجود جماعات كثيرة من العرب في الشرق والجنوب والغرب ، كان عقبة في سبيل إقرار نظام كهذا ، فقد كان للعرب - في الكور المجنّدة خاصة - امتيازات كثيرة . فاذا قبلت الدولة نظام الإقطاع ، فقد كان أولئك العرب الذين سيكونون أصحاب الإقطاعات الأموال التي كانوا يجلبونها من الناس بحسب نظام الكور المجنّدة . ولم يكن هذا من صالحهم لأنهم كانوا ميالين للفوضى أولاً ، ثم إنهم كانوا بعيدين جداً عن إدراك فكرة الدولة وفضائل الخضوع للنظام . ومن الغريب

أن أولئك العرب الذين استقروا في نواحي « تدمير » وهي « مرسية » العربية ، وكذلك نواحي غرناطة وبعض كور الجنوب ظلوا متجمعين في مراكزهم يعيشون حياتهم العربية في مواطنهم الأولى ، يقضون أوقاتهم في مجال الفروسية وقول الشعر والحرب فيما بين بعضهم وبعض ، مما كان يخرب الأرياف ويؤذى الزراعات وكان معظمهم من المولدين والمستعربين . وقد بلغ من قصر نظر رؤسائهم أنه كان لا يعينهم مصير الإمارة مع أنها كانت درعهم الواقى وقاعدة قواتهم . وسنرى ذلك بوضوح عندما تقوم الفتنة .

وقد تعرضت الإمارة في النواحي الغربية في بلادها من « كور ماردة وبطليوس والأشبونة » وبقيّة ما يعرف اليوم بالبرتغال ، لخطر من نوع آخر ، فهناك كانت تقيم جماعات كبيرة من المولدين الذين احتفظوا بشخصيتهم المحلية وبروابطهم بأصولهم الإسبانية . وأرض الغرب هذه كانت مفازات (أى أرض قاحلة) وأراضى جبلية يصعب على الإمارة السيطرة عليها سيطرة تامة ، وكانت الدولة تلجأ إلى العنف ، والعنف يولد العنف . ومن أمثلة ذلك تصرف الإمارة حيال طائفة من زعماء أهل الغرب الأندلسى كان مركزهم مدينة ماردة ويتزعمهم مسلمٌ مؤلّد من أصلٍ جليقىّ يسمى « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » ، وقد طالبوا الحكومة بأن تسمح لهم بشيء من الاستقلال في ناحيتهم ، وبدلاً من الموافقة ، نجد الأمير محمداً يخرج جيوشه إلى ماردة سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م ، ويستولى على ذلك البلد ويأخذ كبار الثائرين معه ويسكنهم في قرطبة ليطمئن إلى ولائهم .

ولكن الوزير « هاشم بن عبد العزيز » أساء التصرف مع « عبد الرحمن بن مروان الجليقى » وأهانته ، فهرب من قرطبة إلى ماردة ثم إلى بطليوس ، وعبثاً حاولت الإمارة إخضاعه دون جدوى ، فتحالف مع ألفونسو الثالث ملك ليون ، وأرسل محمداً لحربه سنة ٢٦٢ هـ / ٨٧٦ م ابنه « المنذر » ومعه الوزير « هاشم ابن عبد العزيز » . وكان هاشم رجلاً طائشاً عاجزاً عن مواجهة عبد الرحمن بن مروان الجليقى وحليفه « سعدون السرنباقي » ، وكانت النتيجة هزيمة كبيرة لجيوش الإمارة في شوال ٢٦٢ هـ / يونيه ٨٧٦ م ووقوع هاشم بن عبد العزيز في أسر السرنباقي فأسلمه لعبد الرحمن الجليقى . وقد اقتداه الأمير محمد بمائة وخمسين ألف دينار ، وبعد حروب طويلة انتهى الأمير إلى الاتفاق مع عبد الرحمن الجليقى على إقراره على بطليوس ونواحيها ويكون في رجال الإمارة وحلفائها .

ثورة عمر بن حفصون :

ولكن أكبر الثورات الداخلية التي نتجت عن إصرار الحكومة المركزية على بسط سلطانها المباشر على النواحي ، ورفضها السماح بنصيب كبير من الاستقلال لأهل النواحي ، نراه في ثورة « عمر بن حفصون » في ولاية « رية » الجنوبية وهي ما يسمى الآن بمحافظة « مالقة » .

ويذهب مؤرخو إسبانيا إلى أن ثورة عمر بن حفصون تمثل نزوع الإسبان إلى التخلص من سلطان العرب ، وهم يدرسونها على أنها جزء من التاريخ الإسباني العام . وذلك خطأ من كل ناحية ، فعمر بن حفصون أندلسي مولداً ونشأة وعاش معظم حياته مسلماً ، وأسباب ثورته تتصل كلها بنظام الحكم الأموي ، ووجود جماعات كبيرة من العرب في كور « تدمير والمرية وغرناطة » ، وسوء تصرف أولئك العرب مع الزراع وأهل القرى في تلك النواحي ، ومعظمهم مولدون ومستعربون . وهو لم ينزع قط إلى الانفصال عن الأندلس إلا عندما تدهورت ثورته وأصبح يلتمس النجاة من الهلاك المحتوم بأي طريق . وهذا لا يمنع من القول أنها كانت ثورة خطيرة وأنها هزت كيان الدولة الأندلسية هزاً عنيفاً . وقد كان أمراً محزناً في أيام عمر بن حفصون ، ولكنه كان مفيداً فيما بعد ، لأن هذه الثورات الشعبية تكشف عن الكثير من العيوب الكامنة وتحفز أولى الأمر على تلافيتها .

والسبب المباشر لقيام هذه الثورة هو تشدد عامل « رية » في جباية الأموال المتأخرة . أما السبب الحقيقي فهو أن أهل هذه النواحي الجبلية لم يظفروا قط بالعناية الكافية من جانب الحكومة المركزية ، فامتلات نفوسهم بأسباب الغضب والشكوى وأصبحوا خطباً يابساً لنيران أية ثورة تقوم .

وقد بدأ تمرد أولئك القوم في سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م وحاول الأمير محمد أن يطفى نيرانها بالقوة فلم يفلح ، وهنا ظهر عمر بن حفصون ، وأخذ يتزعم مطالب أولئك الناس أمام الحكومة المركزية . وهو من أصل إسباني مسيحي . إذ أن جده « ألفونس القسي » ، وجدته الرابع هو الذي اعتنق الإسلام ، فنشأ هو في « ريه » رجلاً عنيفاً متمرداً ، فجمع طائفة من الأشرار ونزل في مكان منيع بجبل « ببشتر » شمال شرقي جبال « رنده » ، واعتصم في ذلك الجبل وأخذ يناوىء قوات الإمارة . وهنا أرسل محمد وزيره هاشم بن عبد العزيز وكان قد أخلى سبيله من الأسر ،

فاستطاع استنزال عمر بن حفصون من حصنه وضمه إلى ضباط جيش الإمارة ،
وفعلاً اشترك في حملات قامت بها في الشمال . ولكن ابن حفصون كان متمرداً
بطبعه ، ثم إن هاشم بن عبد العزيز أساء إليه فترك قرطبة مرة أخرى وعاد إلى
العصيان سنة ٢٧١ هـ / ٨٨٤ م .

وسار « المنذر بن محمد » لمقاتلته وضيق عليه ، فلما كان على وشك الاستيلاء
على حصنه الأخير بلغه الخبر بموت أبيه الأمير محمد ، فارتد المنذر إلى قرطبة في
٢٩ صفر ٢٧٣ هـ / أوائل أغسطس ٨٨٦ م فتنفس مخنق عمر بن حفصون بعد
أن كاد أمره يتبدد .

ونستطرد مع تاريخ حركة عمر بن حفصون فنقول إن الأمير المنذر خلف أباه
محمداً ، وكان فارساً نجداً وقائداً قادراً ، فسار لمحاربة ابن حفصون ، وكان هذا
قد انتهز الفرصة ووسع سلطانه حتى شمل منطقة « رِيَّة » بأكملها ، وأخذ يتكلم
في ضرورة الثورة على السلطة للتخلص من الضرائب والظلم . ويذهب فئة من
المؤرخين إلى أن عمر بن حفصون دعا إلى تحرير البلاد والتخلص من الحكم
العربي . والحقيقة أن عمر بن حفصون كان مسلماً ، وكذلك كان كل رجاله ، وكان
رجلاً تربى في ظلال الإسلام ، فهو ثائر على سوء الإدارة وطامح إلى السلطان ولكنه
لم يقصد أبداً الارتداد بإسبانيا إلى النصرانية ، فهو في ثورته لم يحاول الاتصال
بنصارى الشمال ، بل كتب إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يولييه حكم البلاد
التي دخلت في طاعته ، وكتبت « بنى رستم » أهل « تاهرت » ، وكذلك كتب إلى
« بنى الأغلب » يطلب مساعدتهم ولو أنه لقي من قرطبة بعض التسامح ، فقد كان
من الممكن أن يعود إلى الطاعة آخر الأمر .

وقد صمم المنذر على القضاء على الثائر ، فسار إليه وحاصره في الجبل الذي
اعتصم به حتى أرغمه على التسليم ، بعد حكم لم يدم أكثر من سنتين في صفر
٢٧٥ هـ / يونية ٨٨٨ م وخلفه أخوه عبد الله بن محمد .

الأمير عبد الله :

وكان الأمير عبد الله يختلف عن أخيه المنذر وأبيه محمد ، فقد كان بارعاً في
حبك المؤامرات ، ولم يكن واسع الذكاء ولا بعيد التصور ، ولكن فضيلته الكبرى

كانت الثبات ، فإن هذا الرجل لم يكن ليفقد صوابه أو هدوءه أبداً رغماً عن تواتر الثورات عليه .

ولم يستطع الأمير عبد الله القضاء على ثورة ابن حفصون ، فامتد أذاه إلى كل نواحي جنوب الأندلس ، وخاف العرب على أنفسهم ، فتصدوا لحربه وتزعمهم رجال من أمثال « سوار بن حمدون القيسى المحاربي وسعيد بن جودي ومحمد ابن أضحي الهمداني » في كورة غرناطة . وكذلك ثار عرب إشبيلية ، بقيادة « كريب ابن خلدون وإبراهيم بن حجاج » ، وطال النزاع بين أفراد هذين البيتين ، ولم يبق في طاعة الأمير عبد الله إلا قرطبة وأحوازها .

ولم تنجُ الإمارة القرطبية من الزوال إلا بفضل قائد عظيم هو « أبو العباس أحمد بن أبي عبده » فإن هذا العسكري الموهوب . استمر نحو ثلاثين سنة في ميادين الحروب مدافعاً عن الجماعة ووحدة الأندلس . وبفضل هذا القائد وابن أخ له هو « عبيد الله محمد بن أبي عبده » ، استطاع الأمير عبد الله إيقاع هزيمة قاصمة بعمر بن حفصون في ٢ صفر ٢٧٨هـ / ١٦ مايو ٨٩١ م . واستولى بعدها على حصن « بلي » من أحصن معاقل ابن حفصون قرب مدينة « نبرة » ، وقد كانت هذه المعركة هي الخطوة الأولى نحو القضاء على عمر بن حفصون ، فقد طارده جند الإمارة وحاصروه في معقله الأكبر وهو « ببشتر » ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء عليه لتعدد الثورات . وعندما توفي الأمير عبد الله في أول ربيع الأول ٣٠٠هـ / أكتوبر ٩١٢ م كانت ثورة عمر بن حفصون ومعظم الثائرين قد وهنت ، وتمهد الطريق لتسليمهم للإدارة القرطبية ، والفضل في ذلك راجع لهذا الأمير عبد الله الذي استطاع رغم وجود النقص الكثير في أخلاقه ، أن يجتاز بالإمارة القرطبية المحنة وينجو بها من الأخطار .

وقد أمضى الأمير عبد الله حكمه كله في حرب متصلة مع أولئك الثائرين الذين تكاثروا في كل ناحية وازدادت جرأتهم على الإمارة ، وتسمى هذه الفترة كلها « بفترة الفتنة الأولى » ، وتمتد من أواخر أيام الأمير محمد إلى أوائل أيام عبد الرحمن الناصر ، وتعددت مراحلها وأدوارها ، ففي دورها الأول كانت ثورة من بعض أهل النواحي على ما سمّوه ظلم الإدارة القرطبية وإجحافها في جباية

الأموال ، وليس ذلك بصحيح . وترتبط هذه الدعوة بأسماء « عبد الرحمن بن مروان الجليقي » في الغرب « وعمر بن حفصون » في الجنوب .

وعندما طالبت الحرب وأحس العرب في نواحي تدمير وغرناطة وإشبيلية بضعف الإمارة ، بادروا هم الآخرون إلى الثورة على الإمارة وخلعوا طاعتها ، وقال شعراؤهم شعراً يطالبون فيه الإمارة بأن تترك الأندلس لهم ، واستطالوا على المزارعين وأهل القرى وظلموهم فنجم من بين هؤلاء ثوار انضموا إلى عمر بن حفصون ، ودارت الحرب بين ابن حفصون والعرب ، وكان النصر عليهم لابن حفصون حتى وقع في أسره قائدهم « سوار بن حمدون المحاربي » . واشتدت الفتنة بين بني حجاج وبني خلدون في إشبيلية واشتعلت الأندلس كلها ناراً كما يقول ابن عذارى : وهذا هو الدور الثاني للفتنة . وقد واجهها الأمير عبد الله بشجاعة ومعه قواده ، وقد ذكرنا اثنين منهما ، ونضيف إليهما هنا « جعد بن عبد الغافر » الذي استشهد في حربه مع بني حجاج ، ولكنه حطم قواهم واستمر الأمير على ذلك حتى استولى رجال الأمير عبد الله على حصن « بلى » ، فانكسرت شوكة عمر بن حفصون وفقد هيئته وتخلي الناس عنه واعتصم بمعقله الحصين في ببشتر حتى توفى الأمير عبد الله سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢ م .

ومن حسن الحظ أن الذي خلفه كان « عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله » ، وكان الأمير عبد الله قد قتل ابنه محمداً لاتهامه بمؤامرة ، وذلك قبل مولد عبد الرحمن بأسابيع قليلة ، وقد تحول ندم الأمير على قتله ابنه إلى عطف على حفيده ، ولذا فقد أحب عبد الرحمن وأسكنه معه في القصر وأشرف على تربيته وقدمه على سائر أبنائه ، ولم يكن أحد من الباقين من أبناء عبد الله يظن أن العرش يمكن أن يصير إلى عبد الرحمن فسكتوا عنه ، وكان هو من جانبه شاباً ذكياً بعيد النظر فكان يقوم بالوساطة بين الأمراء ورجال الدولة وجده العنيف البخيل ، فأحبه الناس ووسطوه في حاجاتهم فنشأ محبوباً من الجميع مقرباً إلى جده . فلما توفى الجد ، أجمع أهل القصر على مبايعته ، ولم يختلف عليه أحد ، لأن أحوال الإدارة كانت من السوء بحيث لم يكن فيها مطمع لأحد . وهكذا أصبح عبد الرحمن ابن محمد المعروف بالثالث أو الناصر أمير قرطبة دون صعوبة ، في ٣٠٠هـ / ٩١٢ م ، وبدأ في تاريخ الأندلس العصر الذهبي وهو عصر الازدهار الأكبر .